رواية

يارا الغضبان

أنا أربيل شارون

ترجمها عن الفرنسية: عصام الشحادات

مكتبة المتوسط

أنا أرييل شارون

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

حقوق نَسخ الترجمة العربية © 2021 **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2018 يارا الغضبان

مكتبة

t.me/soramnqraa

Je suis Ariel Sharon *by* "**Ya[illegible] [illegible]-[illegible]hd[illegible]**"

© 2018 Éditions Mémoire d'encrier, Montréal.

Arabic translation © 2021 [illegible] **[illegible] ass[illegible]it [illegible]oo[illegible]**

المؤلف: يارا الغضبان / المترجم: عصام الشحادات / عنوان الكتاب: أنا أرييل شارون

الطبعة الأولى: 2021.

صورة الكاتبة: Manoucheka Lacherie / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

Canada Council for the Arts Conseil des arts du Canada

This book was published by the support of **the Canada Council for the Arts**

نُشر هذا الكتاب بدعم من **المعهد الكندي للفنون**

ISBN: 978-88-32201-87-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكتبة
t.me/soramnqraa

يارا الغضبان

أنا أريبيل شارون

ترجمها عن الفرنسية: عصام الشحادات

المتوسط

إلى الذين يمنعهم التاريخ أن يكونوا أناساً عاديِّيْن

ملاحظة من الكاتبة

هذه ليست سيرة ذاتية. إنها محض خيال. والخيال وحده قادر على المناورة في ثغرات التاريخ. والخيال وحده يجعل لقاءنا أمراً ممكناً.

2 كانون الثاني 2018

آه، ريتا
بيننا مليونُ عصفورٍ وصورة
ومواعيدُ كثيرة
أطلقتْ ناراً عليها بندقية

محمود درويش

مكتبة
t.me/soramnqraa

تلُّ أبيب، 4 كانون الثاني 2006

زلزال سياسي في إسرائيل

رئيس الوزراء أرييل شارون يقع مَغشيَّاً عليه بعد أن أصابتْهُ جلطة دماغية.

أريك[*]...

أريك، الأسد، يغطُّ في غيبوبة قبل أشهر معدودة

من الانتخابات

أريك ...

رجل إسرائيل القوي السابق يرقد بين الحياة والموت في مشفى تلِّ هاشومير شيبا بالقرب من تلِّ أبيب.

أريك ...

نقل سلطات مَنْ كان يُطلَق عليه «جَدُّ الأُمَّة»

إلى نائب رئيس الوزراء إيهود أولمرت.

أريك ...

(*) Arik، هو صيغة التصغير لاسم أرييل، وهو الاسم الشائع له بين أهله وأصدقائه. المتُرجِم.

كاديما، حزب الوسط الذي أسَّسه أريل شارون قبيل إصابته بالجلطة الدِّماغيَّة،
يحصد فوزاً ضئيلاً.

أريك ...

أريك ...

أريك! اِتْبَعْ صوتي. لا تَبْحَثْ عن النور. لا تَبْحَثْ عن جسدِكَ. أريك! نعم، أنا أتحدَّث إليكَ. هل تشعر بالبرد؟ أنتَ ترتجف. اصبرْ، اصبرْ. كلُّ شيء سيكون على ما يرام بعد قليل. أنا هنا. سأشرح لكَ كلَّ شيء. لا تحاول الكلام. سأكون شَفَتَيْكَ وعينَيْكَ، سأكون جسدِكَ.

أنتَ تطفو. تتلاشى. الفراغ يداعبُكَ. غَطِّ نفسَكَ بالفراغ. اتركْ نفسَكَ تنغمرُ في حرارته. لن تختنق. بالعكس، ستتنفَّس بشكل أفضل، وستسمع أفضل أيضاً. ومَنْ يدري؟! لعلَّكَ تستعيد نظرَكَ على مهل، ثمَّ تستعيد الكلام قريباً. فلا تَبْحَثْ عن نفسكَ الآن. أنتَ لم تعد كائناً. أنتَ تموت، يا أريك. ببطء.

اِهْدَأْ، اِهْدَأْ. إنها الحقيقة، والحقيقة لا تُزعِج أحداً. والحقيقة حيادية. أنتَ تفقد حواسَّكَ ومَلَكَاتِكَ، حتَّى القدرة على تسمية الأشياء، هويَّتِكَ وعُمرِكَ ووجهِكَ. لا تَقلقْ. أنا كلُّ ما لم تعدّه. أنا ما تُحبُّهُ وما تكرهُهُ، أنا أحلامُكَ وهواجسُكَ ونَدَمُكَ. أنا أسمع الكلمات والشكوك والمخاوف. أنا أشاهد، الطفل، ثمَّ الرجل، اندفاعتَكَ في الحياةِ، ثمَّ سقوطَكَ.

وأنا أعرف وقتَ سقوطِكَ بالضبط. فعلى مدى أيَّام وأيَّام، كانت الأخبار والصور نفسها تتوالى في جميع المنابر:

أرييل شارون، القائد الكاريزمي واقفاً وسط الصحراء، تحيط به الزوابع الرَّمليَّة. وأنتَ تعطي الأوامر، وتشير إلى مواقع القوَّات المصرية على خريطة.

أرييل شارون، يجلس إلى طاولة في مركز اجتماعي. أنتَ تشارك المستوطنين طعامَهُم. وإلى جانبِكَ حبيبتُك ليلي. تُقهقهان عالياً بين لقمَتَيْن.

أرييل شارون، رأسكَ بالكاد يرى بين حُرَّاسكَ الشَّخصيِّيْن الذين يفصلون بينكَ وبين المصلِّين في المسجد الأقصى، في القُدْس القديمة.

أرييل شارون، في الكنيست، وأنتَ تشير بإصبع الاتِّهام إلى نائب في المعارضة.

كلَّما مرَّت السنون، زاد وزنُكَ، وترهَّل جسمُكَ الغليظ، كالأناس الشَّرهين الذين تصبح أجسادهم كلُّها أفواهاً. كرشكَ يهتزُّ بمفرده ما إن تخطو خطوة أو تنهض. وبالتالي، لم يبقَ منك إلَّا هذا. هذا اللحم المترهِّل يهتزُّ جيئة وذهاباً فوق حزام البنطلون الذي بالكاد يَظهر تحت الطَّيَّات. وكلُّ ما التهمَهُ هذا اللحم من وجوه وأصوات وحكايات وأمكنة وأزمنة وأراض وبيوت وحيوات قادمة وأماني وصراخ وأحلام وكوابيس، وأرجل تزحف على الأرض، وأيدٍ ممتدَّة نحو السماء. إنهم يتحرَّكون تحت جِلْدِكَ. أنتَ تحشو فَمَكَ بسرعة بالشهوات والجوع

والغضب، بسرعة، بسرعة حتَّى دون أن تمضغَ ما تلتهم. فتتشكَّل تجاويف ونتوءات، تُشوِّه بطنَكَ. وفجأة، ها أنتَ هنا. أرييل شارون حبيس جسدِكَ الهاوية.

حياة كاملة تمرُّ وراء صوت الصَّحَفِيَّة البارد التي تعلن الخبر:

تلُّ أبيب، 4 كانون الثاني 2006. رئيس الوزراء أرييل شارون يدخل في غيبوبة عميقة. وتأتي الإصابة بالجلطة الدِّماغيَّة قبل شهرَيْن من موعد الانتخابات العامَّة التي كان سيفوز فيها شارون - وفقاً لاستطلاعات الرأي - مجدَّداً، هو وحزبه الوسط كاديما الذي أسَّسه حديثاً.

أبتسم. لا تَحْقِدْ عليَّ، لأنني ابتسمتُ، فالأمر أقوى منِّي. وأنا أحمل حكايتي وحكاية الكثيرات غيري من النساء، يا أريك. وإن كُنَّ مثلكَ، قد فَقَدْنَ أجسادهنَّ، لكنهنَّ لم يفقدنَ ذاكراتهنَّ.

أنا أسمع أصواتهنَّ كما أسمع صوتكَ. صوتكَ الذي تخفيه في هذا المكان العازل للصوت، داخل روحكَ.

أنا النار التي تحرق أحشاءهنَّ.

أنا الحُبُّ والحزن.

أنا الصمت.

صمت ...

الاعترافات المهموسة.

البوح المكتوم.

الآلام تُجرجِرُ نفسها.

أنا الصرخة!

الكراهية.

المرارة.

الرضى بعد سماع نبأ سقوطكَ.

تمَّ الأمر أخيراً. وقد نال ما يستحقُّ.

مصير أسوأ من الموت: نصف موت، بل أسوأ.

نصف حياة.

أريك، هل تسمعني؟ هل يُرعبُكَ كلامي؟ لا تهربْ منِّي. غطِّ نفسَكَ بصوتي. فَأَخْشَنُ قماشٍ هو أكثره دِفْئَاً. أنتَ تعرف ما أعنيه جيِّداً، أنتَ مَنْ كنتَ تسهر الليالي بأكملها في حقل أبيكَ مرتدياً معطفاً صوفياً.

دَعْنِي أقترب منكَ، أُلامسُ جَفْنَيْكَ، أملؤهما بعَيْنَيَّ. هل تراهما، يا أريك؟ هل ترى السواعد والوجوه وصدور الأطبَّاء والمسعفين والممرِّضات المشرفين عليكَ؟ إنهم يدفعون السرير نحو غرفة العمليات.

عُم، يا إريك. استمتع بخفَّة الموت.

أنتَ لستَ مؤمناً، مع ذلك كنتَ تُصلِّي صلاة صغيرة قبل إقلاع الطائرة. تفعل ذلك بدافع من التشاؤم أو العادة. كما أنكَ لا تؤمن بيوم القيامة، ولا بالقِيَم. أنا، أيضاً، لا أؤمن بذلك. هل يُدهِشُكَ هذا؟ يُدهشُكَ وجود ملاكٍ كافرٍ؟ أنتَ مُلحدٌ، ومع ذلك تعتقد حقّاً أنني ملاكٌ؟ كلَّا، يا أريك. الملائكة لا تُسائل نفسها، إن كانت إلى جانب الخير أم الشّرِّ. الملائكة لا تُولَد ولا تهرم ولا تموت. الملائكة تكون. بكلِّ بساطة.

أنا كنتُ شابَّة ذات يوم، وجميلة. أحببتُ فتى، كان يملك موهبة الكلمات. كان يقول لي إن إلهاً يعيش في عينَيَّ. كان شاعراً. وكنتُ قصيدته. كان يكتب لي، كي لا أكبر، لكي أبقى الفتاة اليهودية ذات الضفائر الذَّهبيَّة التي يقرصها من خدودها. لكنَّ ما حَدَثَ أنه هو مَنْ لم يكبر. وأنا - ورغم قصائده - فَقَدَتْ ضفائري بريقَها.

قلْ اسمي، يا أريك. فجميع بؤساء هذا العالم يُغنُّون قصيدتي.

كلَّا، لستُ ملاكاً. فالظلم يهدر في داخلي، يشدُّ على عنقي، ويُسمِّرُ قَدَمَيَّ في الأرض. فترى أجنحتي تضرب الهواء، وتضرب، وتضرب. تحبس الريح تحت إبطي. الريح تدفع تحت ذراعي، وتدفع حتَّى تُكسِّر لي عظامي، وتنتف ريشي. خلال تلك اللحظات، يكون الظلم شفَّافاً، حاضراً في كلِّ مكان، وفي كلِّ شيء، غير مَرئيٍّ مثل الأنفاس في الأيَّام الحارَّة. ومثل الأنفاس في الأيَّام الحارَّة، يتجوَّل الظلم من فم لفم. ينزلق في الحَنْجَرَة. يشقُّ طُرُقات زرقاء ووردية في العروق، على طول الذراع، عبر الأفخاذ، عند زوايا الأصداغ. يُراكِم أحقاداً صغيرة في القلب. يُفرِغُه من كلِّ ما تبقَّى له من براءة. يُمزِّقه

ألف مِزْقَة. ومن انفجاره القوي ذاك ينبثق فطرٌ أسود ضخم. وينتشر الظلم بكلِّ جبروته!

حقيقياً ومَلمُوساً.

فوَّاحاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نشواناً.

مطلق العنان.

مَهُولاً.

الظلم يطفو فوق الموت، وينتشر في كلِّ مكان. أودُّ لو أسحبه من كاحلَيْه. أُجَعْلِكُهُ. أن أسحقَهُ في قبضة يدي مثل ورقة قديمة. وأن أحشُوَهُ في هذا الفم الهائل، في جسدِكَ، ثمَّ أُغلِق عليه هناك مع الأشباح، وكلّ ما التهمتَهُ من حيوات.

أقول لكَ «في جسدكَ»، والحقيقة أنه ليس هناك حدود بيننا: أنا، أنتَ والنساء الأخريات. أشباحُكَ هي أشباحي. وأشباحهنَّ هي أشباحكَ. لم يعدنَ يعلمنَ أين يبدأ جسدكَ، وأين تنتهي أجسادهنَّ. وأنا أحملكم جميعاً في جسدي أنا.

أنا أُمٌّ. عاشقة. صديقة. عدوَّة. جلَّادة. ضحية. شهيدة. محاربة. متمرِّدة! أنا أُهَدْهِدُ وأصدُّ. أُوَشْوِشُ حكايات الجنِّيَّات. وأبصق الحقائق. أنتَ تَدفِنُني تحت أكوام من الأسرار، ثمَّ تتشبَّث بضفائري للخروج من البئر.

قلْ اسمي، فأنتَ تعرفني!

أنا المرأة التي تعيش في داخلكَ. تلك التي تُحبُّها وتُحبُّكَ. تلك التي تفقأ لكَ عينَيْكَ، وتقطع لسانكَ، وتبتر لكَ هاتَيْنَ اليَدَيْنِ اللّتَيْنِ خَنَقَتَا ابنها. تلك التي ستفركُ لكَ يَدَيْكَ، لكي تمنحكَ الدفء، والتي تضع راحتَكَ الغليظة على ثديها.

أنا هُنَّ. وهُنَّ أنا. كوابيسهنَّ تسيل قطرات في أحلامي. وأحلامهنَّ في كوابيسكَ. أنا أجمع الأحلام والكوابيس، أُداعبُها وأُدلِّلُها وأُغذِّيها.

أنا المرأة التي تنتظر عذابكَ. وهي تُعيد تمثيل موتكَ، لتستمتع بعنف المشهد. إنها تنتظر موتكَ بلهفة انتظار عودة ابنها المفقود، وإن كانت تعلم أن الأمر كذبة. الحِداد، الغضب والبعث. كلُّها أكاذيب للبقاء على قَيْد الحياة.

صَه، يا حبيبي. صَه، يا أريك، حبيبي. كلّا، لا تُعِدْ إليَّ عينَيَّ. لا تَحرِمْ نفسكَ من النور، حتّى إن كان حارقاً. خُذْ، إليكَ قلبي. حِسَّنِي. تُهْ بين ظلالي. فالضوء مُؤذٍ وحده هكذا، بدون الظلمة. لا يمكن للضوء أن يوجد بنفسه ولنفسه.

ضيائي أقوى من اللّازم، وعليَّ تخفيفه. عليَّ كمد بريقه بشيءٍ من الرَّماديِّ والبُنيِّ. أحتاج إلى ضياء هجين، لكي أُحبَّ نصف الرجل، أو نصف الوحش. الآلة ساحقة الأرواح التي جُمِعَت أجزاؤها حتّى صارت جداراً. الأب المحزون، المراهق المشاكس، والرجل البارع في إلقاء النكات.

ألجُ داخلَكَ، حيثُ تدسُّ قلقَكَ وضحكاتِكَ واندهاشاتِكَ. لكي

أُحَيِّيَ دون ندم أفراحَكَ عندما تطرق على بابي، وأسمح لأحلامِكَ أن تُدغدغَنِي دون أن أخون بقية النساء.

هل سيحقدنَ عليَّ، إن نزعتُ عن كلِّ حرف من حروف اسمكَ سوادَهُ، وعن كلِّ تاريخ من حياتكَ عنفه، إن أخذتُ منكَ موتَكَ، وأعرتُكَ الحياة؟ هل سيحقدنَ عليَّ، إن اندسستُ هناك حيثُ رأينَكَ عارياً، إن خلَّصتُكَ من كلِّ هذه الطبقات، من جِلْدِ المقاتل وقناع السِّياسيِّ، فلا يبقى سوى أنتَ أمامي، أن تصبح لا أحد، وأن أصبح أنا لا أحد؟

لِنَكُنْ لا أحد. لِنَكُنْ سويَّةً بدون وجه. ولِنَتُهْ في هذا النوم الطويل. لنكشف وجوهنا جميعاً.

اسألني: مَنْ أنتِ؟ وسأُسمِّي لكَ كلَّ النساء.

اسألْ نفسَكَ: مَنْ أنا؟ وستُجيبكَ كلُّ النساء. أصواتهنَّ صوتي. أحقّاً لا تعرف مَنْ أنتَ؟

لا تبكِ، أريك. انهضْ، وقفْ على قَدَمي.

ولِنَعُدْ إلى البداية من أوَّلها.

قبلي أنا.

قبلكَ أنتَ.

فيرا

أهذا أنتَ، أريك؟ أسمع خطواتكَ في الثلج. لا تحاول الاختباء. الغابة عارية. اقتربْ من النار. اجلسْ بقربي. لم أعد أرَ مثل السابق. ياه! كم هرمتَ منذُ موتي! هل حقّاً مرَّتْ ثماني عشرة سنة؟ لقد فَقَدْتُ مفهوم الزمن ...

أنتَ ترتجف. تعال، تعال بين ذراعَي. استلقِ في حضني. لا تشعرْ بالحَرَج. مَنْ يعلم متى ستسنح لنا الفرصة ثانية أن نلمس بعضنا بعضاً؟ لقد أضعْنا ما فيه الكفاية من الوقت هكذا. حياة بأكملها دون أحضان. لا تُقاوِم الحنان، أريك، الآن وقد نجحتُ أخيراً في حَلِّ عُقدي النَّفْسِيَّة. خُذْ، إليكَ معطفي. أنا لا أحتاجه. فأنا والبرد أصدقاء قدامى.

لماذا تقف بعيداً؟ المسْ هذا الوجه. هذه الزوايا المستديرة، هذَيْن الجَفْنَيْن الآسيويَّيْن، هذه الخدود، الأسيلة رغم السنين. جبهتي، حواجبي، أنفي المستقيم مثل الألف. أنتَ تحبُّ هذا الأنف. كم كان بودِّكَ أن ترثَهُ. ليس الشفاه، فهي نحيلة، ولا تُناسِب ذوقَكَ. أنتَ مَنْ يذوب أمام شفاه ليلي المليئة. هيا. دَاعِبْ هذه البشرة السمراء، هذه البقع وتلك التجاعيد. ألم تتعرَّف على وجهي؟ لقد تغيَّرتُ ما في ذلك شكٍّ. انظرْ إلى هاتَيْن اليَدَيْن وقد تعرَّقَتَا. لقد استهلكتْهُما

أعمال المزرعة. فهذه الأيدي لم تُخلَق لحَلْب البقر. لطالما تخيَّلتُها تضع السَّمَّاعة على قلب طفل. غريب! أليس كذلك؟! ابتسامتي تُفاجِئُكَ؟! أعتقد أنها ابتسامة الحكمة.

لا زلتَ لم تتعرَّف عليَّ، ولا على صوتي، ولا حتَّى على هذه اللهجة الرُّوسيَّة التي تجعلُكَ تضحك عندما أحلف بالعبري؟ لا تقلقْ، أريك. نَادِني فيرا. لقد عشتُ البداية والنهاية. هذا ما تبحث عنه، أليس كذلك؟ بداية كلِّ هذا ونهايته؟ عن مخرج من الغيبوبة؟ قد تموت، أريك. وفوراً، إن أردتَ ذلك. ما عليكَ إلَّا أن تطلب منِّي ذلك. فأنا ماماشكا mamashka. أنا مَنْ منحتُكَ الحياة. وبوسعي استعادتها منكَ.

ما خَطبُكَ الآن؟ هل اشتقتَ لرؤية الشمس والسماء الزرقاء؟ بودِّكَ لو تراهما قبل أن تموت؟ يا بنيَّ sinyoula، يا بنيَّ العزيز bni hayakar! أقولها لكَ بكلِّ اللغات. ميِّت أم غير ميِّت، أنتَ لي. أنا أعرفُكَ، أريك. أنتَ لن ترحل قبل أن تعرف أيَّ أثر تركتَ وراءَكَ.

انهضْ وأطفِئ النار. هل لديكَ الشجاعة لمواجهة البرد؟ فَلْنَمْشِ إذنْ، لنمشِ، إلى أن نفقد الإحساس بأصابع قَدَمَيْنا. آه ... عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أُحبُّ كثيراً تمرير أصابعي على رموشي، واكتشاف أن الثلج قد جَعَلَهَا قاسية. هيَّا. أعطِني يَدَكَ، بنيَّ sinyoula، ولنمشِ نحو بداية القصَّة.

انتبه إلى الجذور! جَدُّكَ هو مَنْ زرعها. كان رجلاً ضخماً وقوياً، إلى درجة أنه كان يُرهِب العدوَّ والصديق. خَدَمَ في جيش قيصر روسيا.

ومكافأة على شجاعته، مَنَحَهُ القيصرُ غابةً على أطراف الإمبراطورية، على طول نهر دنيبر. هل تعرف أين يقع هذا النهر؟ في بلادي. في بيلاروسيا. لكنْ، في ذلك الوقت، بيلاروسيا لم تكن موجودة. كان هناك الإمبراطورية الرُّوسيَّة والغابة. فقط هذا كلُّ شيء.

تلك المنحة كانت في رأي البعض حُكْماً بالنَّفْي، لكنْ، كلَّا. فالغابة، بالنسبة إلى هذا الرجل الذي لم يعتقد أبداً أنه سيملك أرضاً يوماً ما، كانت هدية من السماء. فاستقرَّ مع عائلته في غالفينجيجي Galevencici، على تخوم الغابة. هناك حيثُ تتماوج الأنوار في البعيد. كانوا على مدى أجيال العائلة اليهودية الوحيدة في المنطقة. الرجل كان من عائلة شنيروف. وقد ورث عنه أبي، مردخاي، قامته المهيبة والغابة ومهنة الغاباتي. وبدوري أخذتُ عن أبي هذا الجسد المكتنز، درعاً قاسية كالحديد. وأنا، أُمُّكَ، ماذا أورثْتُكَ، يا أريك المسكين؟! قل لي!

كلَّا. لا تُجبْني.

لم يكن في غالفينجيجي كهرباء ولا ماء في الصُّنْبُوْر. وكانت جدران المنزل الخشبية تصفرُّ ما إن تهبّ الريح. في ليالي الشتاء، كنتُ أنا وإخوتي وأخواتي ننام ملتصقين بالمدفأة، إلى درجة أن شرارات اللهب كانت تحرق الأغطية. عند الفجر، كان صدى فأس أبي يندسُّ في نومي.

هل تشعر بتلك الضربات على جذع الشجرة؟! على هذا الإيقاع عشتُ طفولتي.

سيكون الأمر مماثلاً في فلسطين، لكَ ولأُختكَ ديتا. ستكونان غارقَيْن في مراجعة دروس القواعد بينما أبوكما، صموئيل، يجمع التِّبْنَ في موشاف(*) كفر ملال البعيد عن العمران وعن كلِّ شيء.

جيل وهجرة والكثير من الوداعات بيني وبينكم، يا أولادي .. للوصول إلى ماذا؟ إلى أيِّ نوع من الحياة، kakiye، أريك، قلْ لي؟ لماذ نترك حياتنا في روسيا، لنعيش مثل المُحاصَرِين في فلسطين؟ أبوكَ يجمع التِّبْن دون أن يرفعَ نظره عن الحظيرة خشية أن يُشعِل أحدهم فيها النيران. وأنا أراقب الأُفُق من الشُّبَّاك، وفِي متناول يدي بندقية الماوزر.

بندقية ألمانية! ألمانية تَخَيَّلْ!!

هناك يهود يُقتَلُون ببنادق الماوزر في أوروبا، وأنا مستعدَّة لأن أقتل العرب بالسلاح نفسه هنا. ألا ترى معي أن الحياة آثمة؟ نعم، بالتأكيد! وأنتَ، يا أرنبي الصغير zychik، كنتَ تقفز جَذِلاً والخنجر القوقازي في يدكَ. أرنب صغير بالكاد خرج من جُحْرِه، فخور برَفْع السلاح الذي أهداكَ إيَّاه أبوكَ في عيد ميلادكَ الخامس. ما الفائدة، إذنْ، من الهروب من الحرب، وأن نبني لأنفسنا وطناً في مكان آخر، إن كان علينا، أيضاً، المحاربة للعيش فيه؟ أنْ تنام وعصاة ملطَّخة بالدماء تحت سريركَ. أن تتركَ ابنكَ وحيداً، يحرس الحقول ليالٍ بأكملها، في مواجهة الجيران المعادين لكم، أن يُمضِيَ الليالي

---

*) الموشاف: تجمُّع استيطاني صهيوني، يأخذ شكلاً تعاونياً، وله صبغة عسكرية. والموشاف التَّشاركيُّ مستعمَرَة تعاونية، نشاطها الأساسي الزراعة. أرض الموشاف مِلْك للصندوق القومي اليهودي. الإنتاج في الموشاف جماعي، والملكية جماعية في كلِّ شيء حتَّى في البيوت. ويتمُّ تسويق الإنتاج، من خلال وحدة تعاونية مركزية (المُترجم عن الموسوعة الفلسطينية).

رابضاً دون حركة فيما هو يتحوَّل إلى قاتل، إلى أن يأتيَ اليوم الذي سيستمتع به بذلك. في عمر الخامسة عشرة، بدأتَ تتدرَّب مع عصابات الهاغاناه. من الحقل إلى مخيَّم التدريب. ومن مخيَّم التدريب إلى ساحة الحرب. ما الفائدة، إذنْ، في الهروب من العصابات والبوغروم(*) في روسيا؟

هل حقَّاً حقَّقْنا أيَّ تقدُّم منذُ أنْ كنتُ شابَّة؟ ولا حتَّى سنتمتر واحد. لا أهمِّيَّة لذلك. أنا في غابتي الآن، وأنتَ معي. بعيداً عن كلِّ تلك الحياة بنت الكلب sobach'ya. رجاء! لا تنظرْ إليَّ باندهاش، وكأنها المرَّة الأولى التي تسمعني أشتم فيها. انسَ أنني أُمُّكَ. انظرْ إليَّ، أريك. كلَّا! لا تشحْ بوجهكَ عنِّي. أنا فيرا. أنا امرأة. وأنا أشتم وأصيح!

صَه!

هذا صوت فأس جَدِّكَ. لا بأس، لا بأس، كلُّ شي على ما يرام. إنه هنا. كلُّ شيء على ما يرام. كلَّا! لا تَلمسْني! أنا هادئة الآن. أنا هادئة ... اعذرْني، يا بنيَّ sinyoula. مرَّ وقت طويل جدَّاً منذُ أن فتحتُ فمي. منذُ أن فكَّرتُ في كلِّ هذا؛ كفر ملال، غالفينجيجي. القلق.

القلق من عدم سماع فأس أبي في الصباح. تلك الصباحات التي تهبُّ فيها الرياح بقوَّة، وتدفن الصدى. فلا تعرف إن كانت الشمس ستُشرق. إن كنتُ سأعيش يوماً آخر. أنتَ، أيضاً، شعرتَ به، ذلك

---

*) pogrom؛ هو شكل من أشكال الشغب، يَستهدف، بصفة أساسية، الأقلِّيَّات، تحدث فيها عمليات قَتْل وتدمير لمنازلهم وممتلكاتهم ومراكزهم الدِّينيَّة. يشير المصطلح، في الأصل، إلى العنف الذي استهدف اليهود فيما بين القرنَيْن 19 و20، خاصَّة في الإمبراطورية الرُّوسيَّة (المُترجِم).

القلق. وكنتَ صغيراً جداًّ على ذلك، أريك. وتلك غلطتُنا. غلطتي أنا وغلطة أبيكَ. لقد ربَّيْناكَ والبندقية على كتفكَ. كلَّما فكَّرتُ في ذلك، أدركتُ كم تتشابه طفولتنا. نحنُ لسنا سوى فئران، تدور في عجلة.

حياة بأكملها ونحن نعيش جنباً إلى جنب مع الموت. ننطلق صباحاً إلى الغابة، نتبع صداه. أحياناً تغريد العصافير، أحياناً رَمح الخيول البرِّيَّة. ننتظر يوم عودته، عودة الموت. أَلُفُّ نفسي بحفيف الأوراق. أستعيد أحاديث الأمس ووشوشات الأصدقاء القادمين من المدينة مثقلين بقصص مرعبة عن اليهود الذين يُقتَلُون في شوارع أوديسا ومنسك وبرست.

كانوا يزوروننا في يوم الغفران أو في عيد الفصح. هم اليهود الوحيدون الذين نراهم خلال العام. كان شعورنا بالوحدة يقلُّ وهم معنا ... لكنهم كانوا يأتون محمَّلين بالأخبار السَّيِّئة. كما لا يفوتهم، أبداً، التَّنبُّؤ بمذابح آتية! كنَّا نتابع النقاشات الصاخبة عن العصابات التي تجتاح أوديسا، وتُشوِّه سُمعة اليهود. زعران الملك بينيا كريك Roi Bénia Krik وفروييم Phroïm وغراتش Gratch وكولكا باكوفسكي Kolka Pakovski. كان يُطلق عليهم اسم شتارك Shtark، الأقوياء. بوسعكَ الاعتماد على اللغة اليِدِيْشِيَّة، لتعظيم الفُتُوَّات الذين تهابهم السلطات، ويُرهِبُون التُّجَّار من شعبهم، ثمَّ تراهم في اليوم التالي، يدافعون عن هؤلاء التُّجَّار أنفسهم بقبضاتهم وسلاحهم ضدَّ بلطجية البوغروم! وفي هذا ما يكفي لدفعكَ إلى الجنون، والرغبة في أن تتركَ كلَّ شيء. وإنهم ليتركون. يرحلون

جماعاتٍ جماعات. التُّجَّار وأولاد أحياء الغيتو. كما لو أن مجيء القرن العشرين قد أطلق العَدَّ التَّنازليَّ لأمرٍ ما. لكي لا يقولون عن أنفسهم مَنْفِيِّيْن، يُطلِقون على أنفسهم لقب الرُّوَّاد. يقولون إنهم «يصعدون» إلى أرض إسرائيل، ولا يهاجرون(*). كلاَّ، لا يهاجرون، بل يعودون إلى الأرض الموعودة. وعندما لا يكون دافعهم نحو فلسطين الهرب من العصابات، فهو كراهية الجيران. فإذا لم يكن كراهية الجيران، فهو الحُلم بأن يكونوا رُوَّاداً.

ما من زيارة في يوم الغفران إلَّا ويتردَّد اسم هِرْتْزِلْ في غرفة الصالون. نعم، أريك، هِرْتْزِلْ المؤسِّس نفسه، صاحب الرؤية لدولة إسرائيل Chozeh HaMedinah. أَلَا يعني لكَ هذا شيئاً؟ نعم، بالضبط! إنه بالنسبة إليكَ كما هو بالنسبة إلى كلِّ أولاد الرُّوَّاد الذين وُلِدُوا في فلسطين، أسطورة، بطل. أنتَ تستمع إلى أبيكَ، بعينَيْن مفتوحَتَيْن، وذقنكَ مستندة على كفِّكَ، يروي لكَ قصَّة هذا الهنغاري الذي حوَّل شتات يهود العالم إلى حقيقة طوباوية، وجمعهم، لكي يمنحَهم دولة وأرضاً.

إرتز - إسرائيل. أرض إسرائيل!

وعندما ترقد آخر النهار في سريركَ، وعيناكَ تُلاحِقان الجرذان التي تجري فوق دعامات السقف في بيتنا في كفر ملال، تجري كلمة «صاحب رؤية» على لسانكَ، «صاحب رؤية»، «صاحب رؤية»، كأنكَ تريد امتصاص قوَّتها. أن تساندكَ ضدَّ الخوف، ضدَّ أهوال

---

*) دأبت المصادر الصِّهْيُوْنيَّة على تسمية موجات الهجرة الصِّهْيُوْنيَّة إلى فلسطين «عالياه *aliyah*» أي الصعود إلى جبل صِهْيُوْن (المُترجِم عن الموسوعة الفلسطينية).

الحرب الثانية التي يصُقُها المذياع صباح مساء، وضدَّ غضب العرب، وازدراء الإنكليز.

تتساءل كيف أعرف هذا؟

أنا أُمُّكَ، يا أريك. أنا، أيضاً، كانت لديَّ أحلامي عندما كنتُ في مثل سنِّكَ، وتطلُّعاتي وكوابيسي. أنا، أيضاً، كنتُ أخشى اليوم الذي يصل فيه مستنقع الدماء إلينا. وبكلِّ الأحوال، لا شيء يحدث في هذه البيوت - الأعشاش المثيرة للشفقة في كفر ملال - دون أن يعرف به الجميع. حتَّى الأفكار لها ضجيج.

كوخ مزروع فوق قطعة أرض عقيمة وسط عشرات الأكواخ الأخرى التي وُزِّعَت على أزواج مثلنا أنا وأبيكَ. أزواج هم من الجنون، لدرجة قبولهم أن يكونوا حقل تجارب للإيديولوجيات. كوخ زنخ، جدرانه مصنوعة من الطين ورَوْث الحيوانات، نتقاسمه مع البغل، والبقرة التي اقترحتَ أنتَ تسميتها تكفا Tikvah. أمل! يا للمضحك المبكي! مجنونان وبقرة وبغل وطفلان في كفر ملال. إي! ولا تنسَ الكلب. مُكدَّسون في هذه المزرعة التَّعاونيَّة الملقاة في آخر الدنيا. Sof ha'olam smola. هذه هي الكلمات الوحيدة في العبرية التي تُعبِّر عن نفسي. أنا في آخر الدنيا!

في النهار، كنَّا نُحدِّق في الشمس الحارقة، وفي الليل في العارضة التي تفصلنا عن السقيفة وعن الجرذان. أنتَ تُدمدِم باسم هِرتْزِلْ ظانَّاً أننا قد رَقَدْنا. أنا لم أكن أنام. كنتُ أجترُّ كلَّ ما قَلَبَهُ هذا الرجل في حياتي رأساً على عقب. ففي النهاية ما هو سوى مجرَّد رجل، يا أريك.

رجل يحمل فكرة. رجل من الجُبن أو الذكاء، لدرجة أن يموت قبل أن يرى نتائج أفكاره. هِرْتْزِلْ تُوفيِّ سنة 1904. وسنة 1921، وصلتُ أنا وصموئيل فعلاً إلى فلسطين. هبطْنا في أرض غريبة، وواجهْنا كلَّ أنواع الكمائن التي لم يتنبَّأ بها هِرْتْزِلْ.

في تلك الليالي البيضاء في كفر ملال، كنتُ أُبحر بعيداً عن رائحة الحيوانات المثيرة للغثيان وخُوَارها نحو غالفينجيجي. إلى ما قبل ولادتكَ، وقبل ولادة إسرائيل. نحو سهرات الأعياد في بيت أبوَيَّ المليء بالضيوف. الضيوف الذين ما إن يجلسوا إلى المائدة حتَّى يبدؤوا بسَرْد أقوال هِرْتْزِلْ، كلمة كلمة، والنقاشات والخلافات العاصفة في المؤتمرات الصِّهْيُوْنِيَّة. في بال، في سويسرا. أمَّا موجة الاحتجاج الكبيرة، فكانت عندما اقترح إقامة الوطن اليهودي في أوغندا. نعم، في أوغندا!

لم تكن قد مرَّت أربع سنوات على موت هِرْتْزِلْ حين توَّجه اليهود كالمؤسِّس وصاحب الرؤية لدولة إسرائيل Chozeh HaMedinah. أوغندا؟ لقد نسوها! والتفتت كلُّ الأنظار نحو فلسطين. تلك الأرض الأسطورية، حيثُ الأشجار تطرح المعجزات. أرض مختارة لشعب مختار. أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. هذا الأمر لم يقلْهُ أحدٌ للعرب الذين يعيشون هناك في الأساس. لكنهم يعيشون هناك! ستتضرَّج عصاي بالكثير من دمائهم حتَّى أعرف ذلك. ما أهمِّيَّة ذلك الآن؟! فهِرْتْزِلْ وأتباعه قد طَبَخُوا خليطاً من الخرافات والطوباوية المغرية لكلِّ اليهود الواهمين في العالم.

الله على تلك الليالي في غالفنجيجي! ... أبي يهزُّ برأسه. أحياناً

كانت تبدر منه تنهيدة وهو يسمع الضيوف يُغدِقون المديحَ على أرتز - إسرائيل، المكان الذي سيحلُّ مشاكلنا كافَّة. أحدهم يتباهى بتبرُّعاته للصندوق القومي اليهودي، وآخر ينصح أبي بالإسراع في مغادرة روسيا. لكن جَدَّيْكَ لم يكونا يتدخَّلان بالسياسة. فنحن عائلة شنيروف نعرف أننا يهود، لكننا لم نشكّ إطلاقاً، إطلاقاً في أننا روس أيضاً. وأننا ننتمي إلى هذه الغابة التي رأتْنا نكبر مع أشجارها من البتيولا، وتتسلَّق أغصان الجُلْجُل (حشيشة الدينار) ذات المجسَّات التي تغطِّي جذوعها.

اِلْمِسْها، يا أريك. جافَّة وميتة في الشتاء، وفي الربيع تزحف على جذوع أشجار الصَّنَوْبَر الممشوقة حتَّى تصل قِممها، وتخنقَها بفروعها وأغصانها.

اعذرْني Izvinite! لقد ابتعدتُ عن موضوعنا ... عمَّ كنَّا نتكلَّم؟ نعم، نعم. الضيوف.

كانت السهرات تنتهي دائماً على نفس الوتيرة. أبي يشكر الضيوف على لطفهم، ثمَّ يسأل بأدب إن أحضروا له الكُتُب. هل أحضرتَ تلك الطبعة لتولستوي؟ وتشيخوف؟ النسخة مفقودة للآن! وماذا عن غوغول، وغوركي؟ وهكذا يستمرُّ السَّمَرُ حتَّى آخر نقطة في زجاجة الفودكا. إنه أشبه بعرض للمؤلِّفين الذي سأكتشفهم لاحقاً وأنا أنبش في مكتبته. سُكارى، يغادر الضيوف بيتنا دون أن يعرفوا حقيقة موقف أبي، ولا آراءه حول هِرْتْزِلْ صاحب الرؤية.

كان عليهم أن يسألوني أنا عن ذلك!

بعد عبارة «العام القادم في القُدْس» اللَّازمة، يغادرون تاركين وراءهم في الصالون صدى الأسماء والردود الحامية والخلافات. أقوالهم تتغلغل في داخلي على مهل دون أن ينتبه لذلك أحد. ففيما عدا ملامح وجهي الصِّينيَّة، ما أنا سوى فتاة ضمن إخوتها السبعة صبياناً وبنات.

لا أحد ينتبه لوجودي على المائدة أو ينشغل عليَّ عندما أخرج، لأُفرِغ رأسي من كلمات الكبار.

لا أحد يراني وأنا أصعد السطح، وأُحدِّق في النجوم.

لم يكن أحد يعلم أنني في عمر الخمس سنوات، رغم خوفي من العالم، بدأتُ أحلم بأنني سأُنجز أشياء عظيمة فيه. أن أكون جزءاً من الحكايا التي يرويها زُوَّار عيد الغفران. من الثورات التي تنهار بمجرَّد تفجُّرها. من عمليات القَتْل التي تصبغ المُدُن بالدم مثل حقل شقائق النعمان أمام البيت. شوارع مليئة بالزجاج المكسَّر وأجساد المُضرِبين المغطَّاة بالكدمات، والمنشقِّين الذين أعدمَهُم أنصار القيصر. فإن كنتَ، لسوء حظِّكَ، منشقَّاً ومُضرِباً وفوق كلِّ ذلك أنتَ يهودي ... فمصيبتُكَ مصيبة!

كان هذا قبل الحديث عن الثورة البلشفية والحروب العالمية. أنا أُحدِّثكَ عن إطلاق الرصاص على العمَّال في سان بطرسبورغ. عن الإضراب العامِّ، والتَّمرُّد في ميناء أوديسا. كانت البيانات تطالب بنظام اجتماعي جديد. وبالوعود بدستور أكثر عدلاً. ثمَّ جاء انتقام القيصر. قَمْعٌ كما لم يُشاهِدْهُ أحد من قبل! كلُّ ذلك في عام واحد 1905. العام الذي تنبَّأ بقيام الثورة وكلِّ الحروب التي تلت ذلك.

ضيوفنا في يوم الغفران لم يكذبوا. فالإمبراطورية تتهاوى. وانتهى الأمر بالقيصر عديم الرحمة بأن يتضرَّع هو نفسه للإبقاء على حياته وحياة أولاده. عبثاً. لقد ذَبَحُوهم الواحد تلو الآخر ذَبْح النعاج.

كانت تلك الأحداث تعمل في داخلي عمل الدودة في الأرض الخصبة. أريد أن أشارك فيها، وإن كنتُ لا أفهمها كلّ الفَهْم. ورغم أن فكرة أنْ أُصابَ بطلق ناري من جيش القيصر أو من الجموع الهائجة تُرعِبني، لكنني كنتُ أغبط سرّاً الذين يعيشون في تلك المُدُن الثائرة، الذين يفرُّون منها إلى مُدُن أخرى بل حتَّى الذين يموتون فيها. كنتُ متلهِّفة للعيش، حتَّى مع وجود خطر الموت. ذلك ما أريده بكلِّ كياني. لأن كلَّ شيء كان ممكناً في روسيا في بداية القرن. الأمور الجيِّدة مثل الأمور السَّيِّئة. وأنا لا أريد أن أُفوِّت شيئاً!

آه، يا أريك، هل أستطيع البوح لكَ بسرٍّ، بما أنكَ أخيراً معي، في هذا المكان الذي لا ندين فيه لأحد؟ أنا سعيدة أنكَ فَقَدْتَ ذاكرتكَ. لأن فيرا التي هاجرت إلى فلسطين لتبني إسرائيل. المرأة التي ستُرَبِّيكَ دون أن تحتضنَكَ مرَّة واحدة أو تُقبِّلَكَ، مَنْ تقوم بما عليها القيام به دون تذمُّر، مَنْ تُغلِق على نفسها باب غرفتها، لتكتب رسائل طويلة لأصدقائها وإخوتها وأخواتها المتناثرين في كلِّ مكان، فيرا تلك ما كانت إطلاقاً لتبوحَ لكَ بأسرارها. وما كانت أبداً لتجعلَكَ تعرف الفلَّاحة الصغيرة التي كانتْها في بيلاروسيا، والتي كانت تريد اكتشاف العالم.

انسَ أُمَّكَ. انسَ المرأة البائسة المَنْفِيَّة في بلاد هِرْتْزِلْ. أنا ابنة القرن! متحمِّسة غاية الحماس. طموحة.

1900. واحد - تسعة - صفر - صفر. سنة ولادتي تثبت ذلك. كلُّ شيء يبدأ معي. والصفر المزدوج في تاريخ ميلادي يضبط ساعة العالم. يقيس تعاقب الفصول. يقسم التاريخ إلى عقود وأنصاف قرون. إنها إشارة ربَّانيَّة. تذكير بالوقت الذي يمرُّ. وبكلِّ الأشياء العظيمة التي لا بدَّ من القيام بها!

ها أنا! حمقاء. شابَّة. صبية ساذجة. كيف لا أكون حبيسة عمري مع هذَيْن الصِّفرَيْن الواضحَيْن وضوح الشمس، المحدَّدان للغاية، وعدُّهما ولا أسهلَ؟! كيف أُضيف سنة أو سَنَتَيْن عندما يناسبني ذلك؟ وكيف أحذف سنة أو سَنَتَيْن عندما تُدركني الشيخوخة؟

أنتَ تضحك من دَلَالي وغُنْجِي، أريك؟ الدَّلَال تَرَفٌ، لم يكن لي الحقُّ فيه إطلاقاً. حياتي ليست لي. حياتي مِلْك لحركة التاريخ. وأنا أتلقَّى كلَّ ما تطرحه من جيِّد وسيِّئ، من بدايات ونهايات منذُ أوَّل يوم رأيتُ فيه النور.

1905: سنة البوغروم والإضرابات، عمري خمس سنوات.

1917: سنة الثورة الحمراء وسقوط القيصر، عمري سبعة عشر سنة.

1921: سنة وصولي إلى كفر ملال، إحدى وعشرون سنة.

1928: سنة ولادتكَ، ثماني وعشرون سنة.

1948: قيام إسرائيل، ثمانية وأربعون سنة.

1988: موتي، ثمان وثمانون سنة.

أنا صدى. فراغ. مثقوبة أكثر من الصِّفْرَيْن في تاريخ ميلادي.

ليتَني أستطيع العودة إلى الوراء، أريك ... أن أكتفيَ بالحياة القاسية، بدون تَرَف، في غالفينجيجي. لو أنهم أعْلَمُوني بما ينتظرُني في فلسطين، لَمَا تبعتُ أباكَ قطٌّ، لَمَا تركتُ دراستي للطِّبِّ إطلاقاً. انظرْ. كلُّ هذا الجمال المحيط بنا. بعيداً عن العالم. بعيداً عن قسوته. أن تعيش في القرية. لا فقيراً ولا بائساً. أن تعيش. بدون أصدقاء، بدون أعداء. أن تعيش فقط! مع الشتاء وصمت الشتاء.

آه، يا بنيَّ Sinyoula ... كم اشتقتُ للبرد بعد سفرنا إلى فلسطين. ذلك البرد الجافُّ الذي يقرص الخدود. كنتُ أُمضي الليالي أحلم به مراراً وتكراراً، في كفر ملال. أهرب من الرطوبة. أُحلِّق. عالياً. عالياً. فوق البحر المتوسِّط. أتخلَّص من هوائه المالح، من رائحة السمك المقيتة تلك. كنتُ أطير حتَّى الغابة. أُلامِسُ الثلوج التي تُكلِّل رؤوس الأشجار. ألحسُ النُّدَف على أطراف قفَّازَيَّ الحَمْرَاوَيْن. ها أنا أعود. أعود إلى الطبيعة. أغرس قَدَمَيَّ في كومة ناعمة من الثلج الأبيض، الأبيض! أُنْصِتْ لصوت الثلج يصرُّ تحت جزمتي. يتكسَّر، ثمَّ يتجمَّع من جديد. كريك. كراك. كريك.

لقد خفَّ شعوركَ بالبرد، أليس كذلك؟ لأن الغابة في داخلكَ. هنا، لا أحد يستطيع أن يؤذيكَ. أطفال القرية يتجنَّبون دخول الغابة، ويخشون أشجارها، لا سيَّما أرضنا. ففي المدرسة، يتناقلون قصَّة العملاق ذي اللحية الذي يجول بين الأحراش. إنهم يتحدَّثون عن أبي. فهو يُخيفهم وأنا فخورة بذلك. فالاحترام المهيب الذي تثيره، يا أريك، بين حلفائكَ كما بين خصومكَ، إنما ورثتَهُ عن جَدِّكَ.

خشية الصِّبيَة تُطمئِنُني، فأنا، أيضاً، أخاف منهم. والقرية، بالنسبة إليَّ، هو المكان الخطر كما هي الغابة بالنسبة إليهم. أنا أسير إلى المدرسة، وكُلِّي استعداد للحرب. كُلِّي استعداد لمواجهة النظرات الخبيثة، والرَّدِّ على الكلمات الجارحة. لكنَّ رفاق الصَّفِّ لا يقتربون منِّي. لا أحد يستفزُّني. لا أحد يشير إليَّ بالإصبع. هم ليسوا باللطفاء ولا الأشرار. إنهم، فقط، غير مبالين. عندما تسود العداوة في كلِّ مكان، تصبح اللَّامبالاة أمراً محموداً. عندما ضربت جموع البوغروم المُدُنَ والقرى المجاورة، تَرَكَنا جيراننا بحالنا. لم يتعرَّض أحد لعائلتنا مع أننا هدف سهل، على اعتبار أننا اليهود الوحيدون في الناحية.

انتظرْ! فلنتوقَّفْ قليلاً، أريك. النهر يغنِّي ... وهو يدعونا إليه.

إني لأتساءل الآن لماذا كنتُ أخشى أطفال القرية. إنهم يختلقون الإشاعات حول أبي، كما يفعلون مع كلِّ شخص غريب. شخص قصير جدَّاً أو طويل جدَّاً، شخص كثيف الشَّعْر، أو بشع أكثر من اللَّازم، بل حتَّى مع الشخص الذَّكيِّ جدَّاً. ربَّما كانوا يشعرون بالمَلَل من آبائهم. في الشتاء، غالفينجيجي تَفرَغ من الرجال. يذهبون للعمل في المُدُن لأشهر طويلة. البعض يذهب حتَّى باكو، وراء جبال القوقاز الموحِشة. ليس لديهم الخيار، وإلَّا ماتت القرية من الجوع. يذهبون مُتَّبِعين النهر.

وزوجاتهم تنتظر.

وأولادهم ينتظرون.

أحياناً ينتظرون رجالاً، لن يعودوا أبداً. مثل النهر، يذهبون في

اتِّجاه واحد. يموتون على الطريق، تحت انهيار ما أو في حادث في المصنع ...

أمَّا أبي، فهو ملَّاك كبير، ولم يكن مضطرَّاً أبداً للهجرة، ولا أن يذوقَ ما يذوقه العمَّال من عذابات. إني لأتساءل إن لم يكن القرويون قد جنَّبُونا أعمال الشَّغَب والقَتْل (البوغروم)، لأن أبي هو الرجل الوحيد في القرية، وليس خوفاً منَّا. وجوده يُطمئِنُهم. أو لأنهم لا يشعرون أنهم مَعنِيُّون بالهستيريا التي تجتاح المُدُن، بكلِّ بساطة.

قلْ لي، أريك، كيف لي أن أعرف إن كانت نظرتهم المريبة عليَّ أنا أم على تاريخي؟ إن كان طَبْعي المتعالي قليلاً هو ما يُثيرهم أم ملامح وجهي؟ إن تركتُهم يقتربون منِّي، هل كانوا سيمدُّون لي أيديهم بالسلام أم كانوا سيرفضونني؟ هل تعلم السمكة التي تترك نفسها لتيَّار النهر يحملها معه ماذا ستجد في البحر؟ والعصفور الذي وُلِدَ في القفص، هل يعلم ما الذي ينتظره إن أُطلِقَت حُرِّيَّته؟ إنه الصراع. الصراع دائماً للبقاء في قَيْد الحياة. سمكة أو عصفور، هذا ما ينتظركَ. وهذا ما علَّمتُكَ إيَّاه.

لقد أخطأتُ، يا بنيَّ. فقد كنتُ دائماً ذلك العصفور المحاصَر الذي يرفرف بجناحَيْه في القفص، لكي يتجنَّب مخالب المتفرِّجين. ذلك العصفور الذي ما إن يُعطَى حُرِّيَّته حتَّى يلجأ إلى قفص آخر، بحُكْم العادة.

آه! انظرْ، هناك فتافيت خبز على الطريق. انتبه! لا تَدُسْ عليها. فلنجمعها، ولنتبع الأثر إلى بدايته. إلى الوقت الذي أخذني فيه إلى كفر ملال بالضبط، أين هو؟

هل هو هذه القطعة

أم هذه؟

متى انقلب كلُّ شيء في حياتي اليوم الذي التقيتُ فيه بأبيكَ أم بعد ذلك، عندما قبلتُ الزواج به أم أبعد من ذلك، عندما طَرَقَ الجيش الأحمر على بابنا في تفليس، وأجبرَنا على الاختيار: أن نبقى ونُواجِه النظام الجديد للأمور أم نرحل مع المهاجرين، ونجرِّب حظَّنا في بلد، ليس له وجود بعد؟

ها هي! قطعة خبز من تفليس. خُذْ، لقمة لكَ، ولقمة لي. اممم! طَعْمُها حلو، أليس كذلك؟ إنه طَعْم أجمل أيَّام حياتي ... يُطلق عليها اليوم تبليسي، عاصمة جورجيا. لكنها ستبقى، بالنسبة إليَّ، تفليس دائماً.

عمري سبعة عشر عاماً. جَدُّكَ، مردخاي، سألَني بعدما أنهيتُ دراستي الثَّانويَّة ماذا أودُّ أن أعمل في حياتي؟ كان السؤال مفاجِئاً للغاية حتَّى إني عجزتُ عن الكلام:

فيرا ... آل بابل، عائلة يهودية من أوديسا طلبوا يَدَكِ لابنهم إسحق. آن الأوان لكي تختاري، يا ابنتي. أن تتزوَّجي وتُنشِئي عائلة أو أن تُكملي دراستكِ. لن يكون بوسع هذه الغابة أن تحميَكِ بعد اليوم.

تفرَّستُ في وجه أبي بارتياب. يبدو أنني لستُ غير مَرئيَّة، كما ظننتُ. هل رآني أُفتِّش في مكتبته، وأسحب كتاباً؟ جَدُّكَ، يا أريك، رجل عصري.

الإرث الحقيقي هو الذي تبنيه في عقلكِ، وليس ذلك الذي يؤول إليكِ بالوراثة. إنه الإرث الوحيد الذي لن يتخلَّى عنكِ أبداً، لا يخونكِ أبداً، ولن تكوني أسيرة له أبداً.

كان يُعيد هذا الكلام على مَسمَعِي دون كلل. جَدُّكَ لم يكن بالرجل المنفصل عن واقعه كما يتصوَّره ضيوفه. كان يرصد الغيوم على قِمَم الجبال. وجَدُّكَ الذي يقرأ غوركي بدل الصحف اليومية، كان يعرف أيَّ عاصفة تتشكَّل في الأُفُق. نهاية القيصر قد اقتربتْ، وأولئك المتروكين على هامش السلطة، من أمثالنا، سيتحمَّلون عقاب ذلك. والغابة لن تحميَنا من نوائب الدَّهْر. جَدُّكَ مُدرِكٌ هذا الأمر تماماً. فلا بدَّ من التَّسلُّح. ليس بالبندقية والأوهام، بل بالعلم. بالعلم! جَدُّكَ مُصِرٌ على تعليمنا، أنا وإخوتي وأخواتي. عندما أعلمتُهُ أنني أريد أن أصبح طبيبة، قال لي:

إذنْ، ستذهبين إلى تفليس.

عمري سبعة عشر عاماً، 1917. العائلة الإمبراطورية تُذبَحُ، والحرب قامت بين الطامعين في الاستيلاء على السلطة. من غير الوارد بتاتاً الذهاب إلى موسكو أو سان بطرسبورغ في اليوم التالي للثورة الحمراء. حتَّى رُكننا في بيلاروسيا ليس بمَنْأى عن الصراعات والأعمال الانتقامية.

البيض الفوضويون (اللَّاسلطويُّون) ضدَّ البلاشفة الحُمْر. الحُمْر ضدَّ الخُضْر القوميِّيْن. والخُضْر ضدَّ الاشتراكيِّيْن الثَّوريِّيْن. حكومة الكوموتش (لجنة أعضاء الجمعية التَّأسيسيَّة) ضدَّ الكاديه (الحزب

الدُّستوريّ الدِّيمقراطيّ) ضدَّ الفوضويِّيْن (اللَّاسلطويِّيْن) ضدَّ المنشفيك. صراعات لا تنتهي!

الأرياف تحترق. الحقول تسبح في دماء المجنَّدين حديثاً. والمجاعة، المجاعة، يا أريك! الحرب تبتلع كلَّ شيء. والشعب يموت من الجوع، إن لم يمتْ بحراب البنادق. الميليشيا تجول المزارع، وتُفرِغ المخازن. باسم الحُرِّيَّة. باسم السلام. التبريرات كثيرة. حُرِّيَّة مَنْ؟ السلام وفقاً لمَنْ؟ هذا أمر، من ناحية أخرى، يتغيَّر بأسرع ممَّا يتغيَّر الطقس.

البؤساء الذين ينتمون إلى أقلِّيَّة أو غيرها يحزمون الحقائب، يَجرُّون أطفالهم، ويهربون بكلِّ الوسائل، بالعربات، بالسفينة، بل هناك مَنْ يفرُّ مَشياً على الأقدام. بعضهم إلى أوروبا. الشرق الأوسط أو الشرق الأقصى. وبعضهم إلى الأمريكيَّتَيْن. وأغلبهم قد سَلَكَ الطريق نحو بلاد القوقاز.

هيَّا! إلى البحر الأسود.

إلى بحر قزوين.

إلى حدود الإمبراطورية وراء الجبال.

إلى حيثُ لا تصل الحرب.

التُّجَّار الصغار يتَّجهون نحو باكو أو باتوني. والصهاينة يهاجرون إلى فلسطين. أمَّا الذين يريدون أن يعيشوا، أن يعيشوا حقَّاً، فهم يغذُّون الخُطَى نحو تفليس.

كلُّ شيء يحدث في تفليس. الفنون والثقافة والعلوم ... تفليس هي القُدْس ونيويورك واسطنبول وطهران وبيروت ودمشق. كلُّ المُدُن وكلُّ الحضارات وكلُّ الشعوب مجتمعة: العثمانيون والتتار والفُرْس والرُّومانيُّون والبيزنطيون والروس ...

هل أنا أُبالغ؟ هل هو الحنين داخلي الذي يتكلَّم؟ ما أدراكَ أنتَ، يا أريك، ها؟ بالنسبة إليكَ، ليس هناك تاريخ قبل إسرائيل وقبل مزرعة كفر ملال وقبل مشروع وطن اليهود. وإن كان لا بدَّ مِنْ قَفْز آلاف السنين لأجل القضية، فليكن!

أبوكَ رجل مُولَع بالتاريخ. كان يتحجَّج بأيِّ عذر، ليحكيَ لي تاريخ تفليس. كان من الممكن أن يحكيه لكَ أيضاً عندما وصلْنا فلسطين، لكنه يتجنَّب الموضوع خشية أن يُثير فيَّ الحنين، فأحزن. أن أفكِّر في حيواتنا هناك ... تلك السنوات الأربع. سنوات قصيرة. غاية في القِصَر ... سنوات دراستنا الجامعة ...

اعذرْني! اعذرْني لذَرْف هذه الدموع، يا بنيَّ Sinyoula. فأنا أُمسكها منذُ زمن بعيد. إنها تُغرِقني. السعادة قاسية. كنتُ سعيدة في تفليس، سعيدة لدرجة كبيرة. كيف لي أن أعبِّر لكَ عن فرحي عندما وطأت قَدَمَاي الحَرَمَ الجامعيَّ للمرَّة الأولى؟

أنا في تفليس، ملكة مُدُن القوقاز، مدينة المُدُن! بدت لي الغابة فجأة ضيِّقة للغاية. كيف حَدَثَ أنني لم أختنقْ فيها كلَّ تلك السنوات؟ أنا عملاقة! الغابة برُمَّتها في قبضة يدي. منظر مُصغَّر. طفولة مُصغَّرة في كرة ثلج زجاجية، أضعها فوق أوراقي ومخطَّط تشريح

جسد الإنسان. أتابع عن كُثُب البنتَ المتوحِّشة التي كُنْتُها في الغابة المغلَّفة في الكرة الزُّجاجيَّة. أهزُّ الكرة، لكي تُثلج مرَّة وراء مرَّة، وأنا أعلم أنني أنا نفسي في الخارج، امرأة في العالم، في الحياة الحقيقية. حُرَّة للمرَّة الأولى!

آه! إنها تُثلج، يا أريك. إنها تُثلج.

مُدَّ يَدَكَ. أَمْسِكْ بنُدَف الثلج.

إنها أحلامي. سعاداتي.

كلُّ السعادة التي انقضت ...

إليكَ واحدة. نُدْفَة على شكل نجمة. نافذة مفتوحة على ذكرى. هل ترانا في الداخل، أنا وأبيكَ؟ نعم، هذا صموئيل، وهذه أنا. طالبان جامعيان. كنَّا نفيض ثقة بالمستقبل، ثقة بلا حدود. هو، طالب في الزراعة، وأنا في الطِّبِّ. ألستُ جميلة؟ جالسة في القطار، ظهري مستقيم، ورأسي مرفوعة والكرَّاسات الجامعية على رُكبَتَيَّ.

الوقت صباحاً. أنا ذاهبة إلى دروسي. نظرته على رقبتي بقعة شمس، شعاع دافئ يحرق لي جِلْدِي. ألتفت، فتلتقي عينانا. هو يجلس على بُعْد كرسيَّيْن منِّي، في الصَّفِّ المواجه. شابٌّ بوجه بيضوي. لحية وشارب أسودان مقصوصان بعناية. نظَّارته المستديرة، جاكتته الضَّيِّقة. طويل. نحيف. ربطة عنقه غير مربوطة كما يجب، وقميص نظيف.

التقيتُهُ مجدَّداً خلال لقاء، نظَّمتْهُ جمعية الطُّلَّاب اليهود في

الجامعة. كان ينادي بالتزام سياسي أكثر صرامة، عوضاً عن الاكتفاء بالنشاطات الدِّينيَّة الضَّيِّقة. الطُّلَّاب اليهود يتَّجهون نحو التَّشدُّد. شعورهم بأنهم روس يقلُّ يوماً بعد يوم، ويطالبون بميراث آخر، لا يعرفون عنه الشيء الكثير، سوى ما يتعلَّق بالأعياد الدِّينيَّة حين تجتمع العائلات والتعابير اليِدِيْشَة المتناثرة في لغتهم الرُّوسيَّة. اللغة العبرية؟ إنهم يتحدَّثونها كما يتحدَّثون اللَّاتينيَّة!

صموئيل، العجول بطبعه، يرى أن تلك الصحوة لا تتقدَّم بالسرعة الكافية. هو لا يفهم أن يكون المرء يهودياً دون أن يكون صِهْيُوْنِيّاً. صموئيل ترعرع في بيلاروسيا مثلي، لكنه عوضاً عن تسلُّق أشجار الصَّنَوْبَر في الغابات، كان يجري في أحياء بريست مع أقرانه من اليهود، بعضهم أولاد أحبار متشدِّدين وقوميِّيْن مترمِّتِيْن، وبعضهم أيتام الغيتو الذين تبنَّتْهم «العصابات». وقد عاش كلَّ الأحداث، حُلوها ومُرّها، التي كان يتحدَّث عنها الضيوف في عيد الغفران في بيتنا في غالفينجيجي.

بالنسبة إليه، السهرات في الصالون لا تقتصر على رواية الحكايات الطريفة، بل تدوم ليالٍ بطولها. تبدأ السهرة بالخطط والاستراتيجيات. كيف نجعل الإنكليز يُوفُون بوعدهم بمَنْحنا فلسطين. كيف نأخذ إلى هناك أكبر عدد ممكن من اليهود في أسرع وقت ممكن. كيف نقسم الأراضي بعد وصولنا. ماذا علينا فعله لإنعاش اللغة العبرية، تغيير أسماء المُدُن، الحرص على ألَّا يُخالِط اليهود الموَطَّنون سوى اليهود، ألَّا نُوظِّفَ أحداً من العرب، ألَّا نشتريَ شيئاً من منتجاتهم. أن نخلق اقتصاداً يهودياً حصراً. وماذا إن رفض الفلَّاحون العرب مغادرة

أراضيهم؟ وماذا لو لم تعترف بقية الدول بإسرائيل؟ كيف نبني جيشاً؟ كيف نربح؟ كل الأسئلة وكلُّ الأجوبة على الطاولة. ثمَّ تنتهي الجلسة فجراً في الأرض الموعودة.

كنتُ أتجوَّل تائهة في الغابة، وهو يقوم بالمشتريات للتُّجَّار الخائفين الذين يسيرون بجانب الحائط حذراً. وعندما دفعت الحربُ العالمية الأولى عائلتَهُ للنزوح إلى باكو، كان يُوزِّع الدعايات الحزبية على العمَّال لدى خروجهم من المصانع. وعندما شبَّ عُودُهُ، أصبح يتطوَّع في نشاطات صِهْيُوْنِيَّة عندما لا تكون لديه دروس في اللغة العبرية والتوراة مع أبيه. وإن كان اختار دراسة الهندسة الزِّراعيَّة، فتحضيراً لامتلاك أرض في إرتز إسرائيل، وكلُّه قناعة أن قوَّة الرجال تنطلق من الأرض، من التَّشبُّث بالتراب، من فِلاحتها وحرثِها. والطريقة الوحيدة لبناء أُمَّة هي التَّجذُّر في المكان، وامتلاكه. تحويله، فلا يتعرَّف عليه أحد سوى اليهود.

كلَّا، أبوكَ، يا أريك، لم يكن يفهم كلَّ هؤلاء الشباب اليهود «المزيَّفين»، الشباب غير المنتمين الذين لا يتكلَّمون سوى اللغة الرُّوسيَّة، ويعيشون كالروس. أولئك المندمجون في مجتمعاتهم، الذين يردُّون على شَغَف صموئيل وحماسته بهَزِّ أكتافهم. لكنْ، لَاحِظْ أن ذلك لم يمنعْهُ من أن يتزوَّج واحدة منهم! لقد أحبَّ فيَّ قوَّتي وتصميمي. هذا ما كان يقوله لي عندما كانت الكآبة تتمكَّن منِّي أكثر من اللَّازم في كفر ملال.

ها هو جالس في القطار، الرجل الذي اتَّهم الحضور وجمعية الطَّلَبَة بالجُبن. إنه يتفرَّس فيَّ بإصرار، لدرجة أنني استويتُ في

جلستي، ورحتُ أُحدِّق في الكرسي أمامي. نزلْنا في المحطَّة نفسها. اتَّجهتُ إلى الكُلِّيَّة، فاقترب منِّي.

كنتِ حاضرة في اجتماع الجمعية. أقدِّم لكِ نفسي، أنا صموئيل شانيرمان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فيرا، فيرا شنيروف.

تشرَّفْنا! أنا أذهب كثيراً إلى الجمعية، لكنها المرَّة الأولى التي أراك فيها.

ليس لديَّ الوقت حقيقةً ...

ألقى نظرة على ما أحمله من كُتُب، وقال:

تدرسين الطِّبَّ؟!

هل يُفاجِئُكَ ذلك؟!

ثمَّ ألقيتُ بدوري نظرة على الكتاب في يده:

ألكسندر دوما؟

هل تعرفينه؟

بالاسم فقط. كان لدينا واحد من كُتُبه في مكتبة أبي.

مؤكَّد أنه هذا. رحلته إلى القوقاز سنة 1860تحفة. والمقطع الذي يتحدَّث فيه عن مدينة تفليس ممتع جدَّاً. إنه يجعلني أشعر وكأنني أعيش هناك.

ألستَ تعيش في المدينة؟

نعم، في الوقت الحالي.

لن أعرف إلَّا لاحقاً ماذا كان يعني بكلامه ذاك. كما لو أنه قد قرَّر، مُسبَّقاً، أنني سأصبح رفيقة حياته، فكان يُحضِّرني للمَنفَى القادم؛ لأن ما هو بالنسبة إليه «عالياه» aliyah، العودة إلى الوطن الأُمِّ، هو، بالنسبة إليَّ، مَنفَى، لا شكَّ في ذلك.

صموئيل رجل عملي، يسير بدون غموض نحو أفكاره. وهو لا يتردَّد في إبراز ألوانه حتَّى عندما يكلِّفه ذلك فقدان بعض الأصدقاء. إنه يُفضِّل الوضوح على الدِّبلوماسيَّة، في الحُبِّ كما في السياسة. أوضَحَ لي أنه لا ينوي تمضية حياته في تفليس، وجَّه إليَّ إنذاراً ونحن بالكاد قد التقيْنا! وعليَّ أنا الرضوخ! رافقَني حتَّى الكُلِّيَّة. ولم يتركْني قبل أن يحصل منِّي على موعد.

أنا معجبة للغاية بصموئيل، بذكائه وقناعاته. إنه يفتح لي عينَيَّ، يُخرِجني من قوقعتي، من الغابة التي لا تزال تسكن في رأسي. هناك العديد من أوَّل مرَّة معه. أوَّل قبلة، أوَّل حفلة في الأوبرا، الكثير جدَّاً من السهر والاكتشافات. الجولة في المدينة مع صموئيل ليست مجرَّد جولة أبداً. إنها درس في التاريخ، في الجغرافيا، وفي السياسة. كم من المياه تتسرَّب من شرفات حَيِّ بتلمي؟ تلك الشرفات ذات اللون الفاتح التي تنتظر أن تهبَّ الرياح، لتسلم الروح. ومع ذلك، عندما أسير في ظلِّها مع صموئيل تختفي كلُّ المخاطر. ثمَّ الساعات التي نقضيها في التجوال فوق قمَّة ناريكالا المشرفة على مدينة تفليس

القديمة، والتَّسكُّع في منحدراتها الملتوية. كنَّا نمضي يوماً كاملاً لقَطْع طريق العشر دقائق الواصل بين مربَّع «ميدان» عند سفح الجرف حتَّى القلعة. أين هي تلك المرأة العاشقة ذات النظرات المتلألئة، يا أريك؟

رمادها في شوارع تفليس.

قلبها تحت أنقاض المرصد العربي - بل الأموي، كما كان صموئيل ليُصحِّح لي المعلومة - حيثُ قبَّلَني ونحن نصعد إلى القلعة.

يداها تداعبان النقوش الفارسية في أكاديمية الفنون والآداب.

قَدَمَاهَا تذرعان شارع شونكادزة Chonkadze بشرفاته وإطلالاته، والطُّرُقات المرصوفة في أحياء لاجيزده Lagizde وشافتلي Shavteli.

عيناها، مُسمَّرتان على اللوحات الجدارية في كاتدرائية صِهْيُوْن Sioni.

ركبتاها، متعبتان من الهرولة بالكعب العالي في شوارع المدينة الصاعدة والهابطة.

أسرعي، يا فيرا! إنه ينتظركِ أمام دار الأوبرا. آه، من تلك الأوبرا الموريسكية! ... كم من المواعيد فيها! كم أخذتْنا أرجاؤها في رحلات إلى الأندلس! إلى جهنَّم فاوست، المفضَّلة لدى أبيكَ.

فيرا تلك لا تزال هناك. روحها في كلِّ حجر، في كلِّ زخرفة أرابيسك، في كلِّ شجرة في الحديقة النَّباتيَّة في تفليس.

في أيَّامنا هذه، عندما يذكر الناس جورجيا، يفكِّرون في ستالين الغول Gruzinski kham! يقولون - بينهم وبين أنفسهم - إنه وَلَدٌ متوحِّش، من بلد متوحِّش. كم هي قصيرة ذاكرة الناس! فتفليس قد وُجِدَت قبل هذا السَّفَّاح بدهور. يوماً ما سأخرج من الغابة، وسأعود إليها.

صموئيل يتسكَّع في شوارع تفليس، ليتمكَّن من حفْظها أكثر. أمَا أنا، فأترك نفسي تمضي فيها على هواها مغمضة العينَيْن. إنها غابتي الجديدة. أشعر بالراحة بين أشجارها. والحرب لن تطالَنا هنا في تفليس، وحتَّى إن طالتْنا، فأنا طبيبة، وسأُداوي ضحاياها. سنمضي فيها بقية حياتنا. وصموئيل صاحب الأفكار، سيكتفي بفكرة إسرائيل. وسيترك للآخرين وَهْمَ تحقيق حُلم العودة، «عالياه» aliyah، ما إن ننهي دراستنا الجامعية، ونُنشئ أسرتنا. وبكلِّ الأحوال، ماذا يوجد في القُدْس، ولا نجده في تفليس؟

كلَّما تطرَّق صموئيل إلى الهجرة للقُدْس، يصعد هذا السؤال إلى شَفَتَيَّ، لكنني لا أتمكَّن من النطق به. هو لا يرى أمامنا سوى عقبات ومخاطر. يبحث عن أجوبة وعن حلول، عن الطريق الأكثر مباشرة نحو فلسطين. دخولُ الجيش الأحمر إلى تفليس، جَعَلَهُ سعيداً نوعاً ما. لقد حصل لتوِّه على إجازته في الهندسة الزِّراعيَّة، ولديه الإمكانيات والحجَّة لمغادرة البلد.

بقي لي سَنَتَان، يا صموئيل، سَنَتَان فقط، وأصبح طبيبة.

الآن أو أبداً.

كم مرَّة كرَّرْنا هذه الجمل العقيمة! حاولتُ لأسابيع وأسابيع أن أدفع عنِّي المصير المحتوم، لكن حركة الموج كانت أقوى منِّي. فالجيش الأحمر يتقدَّم والصهاينة مثل صموئيل، وكذلك الوطنيون والمتديِّنون سواء بسواء، باتوا في مَرمَى الأسياد الجدد. أيُّ حركة استقلالية نابعة من أنقاض الإمبراطورية، كان يتمُّ سَحْقها. ورغم كلِّ شيء، كنتُ أتشبَّث بأمل أن تفليس ستحمينا. ففي شراعها ذي الألف قصَّة مكان لقصَّتنا. ولمستقبلنا أيضاً.

لكن صموئيل كان يحلم بحياكة شراعه بنفسه، يريد أن يُعيد كتابة التاريخ اليهودي، أن يُجمِّع رجالاً ونساء متناثرين هنا وهناك، ليصنع منهم شعباً. ما هي حظوظي في أن أُنهي دراسة الطِّبِّ .. أن أُحقِّق طموحي، وأن أعيش بين الجورجيِّيْن أمام حُلمه الكبير؟ مَنْ يرانا من الخارج يعتقد أننا وجهان لعُملة واحدة. هو من المدينة، وأنا من الريف. روسيان طموحان، جمعتْهما قوَّة شخصيَّتَيْهما.

هذا ليس صحيحاً.

نعم، عندما تضطرُّني يهوديَّتي أن أقاتل، فأنا أقاتل. أفعل ذلك لكي أعيش. أنا أدافع عن نفسي. لكنني لم أفكِّر قطُّ في تغيير العالم. أريد أن أعيش، أن أستمتع بكلِّ ما تمنحنا إيَّاه الحياة.

أمَّا صموئيل، فلا.

إنه من ذلك النوع من الرجال المستعدّ لأن يدخل الحرب بكلِّ سرور في سبيل فكرة. وكم هم جميلون هؤلاء الرجال عندما يبدؤون في إعادة تكوين العالم بالكلمات ...

صموئيل يُشيد بالعمل الجسدي الذي يهدُّ الظَّهْر، ويمتدحه؛ فهو فضيلة وسلام داخلي ورسالة. إنه يقول أيَّ كلام! وحدها جرذان المدينة تتكلَّم هكذا عن الريف. فهو لم يضطرّ بحياته إلى قَطْع الأخشاب أو حراثة الأرض أو نقل الماء في السطول الطافحة من النهر حتَّى البيت مراراً وتكراراً.

لقد قرأ أكواماً من الكُتُب، أنا أعترف له بذلك، لكنه لم يضطرّ أبداً لأن يُدخِل ذراعه في شرج بقرة أو أن يجمع الرَّوْث، ثمَّ يعمل على مَدِّه في الحقول طوال اليوم حتَّى يفقد حاسَّة الشَّمِّ إلَّا برائحته. لم يجلس القرفصاء لساعات وهو ينزع الأعشاب الضَّارَّة، ويراقب كلَّ ساق وكلَّ ورقة وكلَّ حشرة ودودة، لم ينهضْ صباحاً ورقبته متشنِّجة من كثرة مراقبة السماء للتَّنبُّؤ بالطقس. كلُّ هذا، سوف يتعلَّمه في فلسطين، ليس قبل.

عندما كنَّا في تفليس، كانت التَّحدِّيات التي تنتظرنا بعد العودة لفلسطين تُثير صموئيل. لا شيء بوسعه أن يُبطِئ هذا القطار المنطلق بسرعة هائلة في رأسه. كان حديثه وقتها يُسلِّيني وأنا أسمعه يحلم أن يعيش على الأرض، وبفضل الأرض. وهو ينسج الحكايات عن أنواع الفاكهة الغريبة التي سيزرعها في إرتز إسرائيل، وعن الحياة الوردية التي سنعيشها هناك في انسجام ووئام. كان عليَّ وَضْع النقاط على الحروف، أن أقول له الحقيقة عن الحياة في الريف أو في المزرعة، فأنا صاحبة باع طويل في ذلك!

صموئيل يتحدَّث بعجرفة وسلطة الرجال المأخوذين بعِلْمهم. كان يشرح لي علْم الزراعة بتلك الثقة التي لا يمتلكها أحد سواه، وليس -

برأيه - لكلِّ معرفتي بحياة الفلاَّحين أيَّة قيمة بما أننا سنُغيِّر كلَّ شيء قريباً تغييراً جذرياً. في داخلية نفسي، أنا أعلم جيِّداً أن هذا الرجل الذي تتسارع ضربات قلبه ما إن يصعد تلَّة، والتلال في تفليس ولا أكثر، أن هذا الرجل الذي لا يحمل شيئاً ثقيلاً، هذا الرجل الذي لا يعرف أنفه سوى رائحة حِبرِ كُتُبِهِ ودفاتره، هذا الرجل صاحب الأصابع الملائمة لمداعبة أوتار الكمان، هذا الرجل الذي يمضي وقته دارساً اللغة اللاَّتينيَّة والفرنسية والألمانية ... هذا الرجل لن يتحمَّل أن يعيش حياة الفلاَّحين طويلاً. ولكنْ، ماذا أقول لكَ، يا أريك؟ فما يبدو في فم أحدهم أوهاماً وخيالات، يبدو عندما تنطقه شفتا صموئيل أمراً مصيرياً محتوماً.

كانت لديه تلك الهالة التي تنسف كلَّ التدابير والمخاوف. إنه يطفو فوق أفكاره الكبيرة، وكلَّما كانت أفكاره قوية وجريئة بدت أقلَّ عبثية. أنا، أيضاً، أريد أن أُحلِّق، وأن أتحرَّر من الجاذبية. معه، أنا أكتشف إمكانيات ما كنتُ أتخيَّل وجودها فيَّ. إنه يَعِدُني أنني سأُنهي دراستي هناك، وأنه بوسعي، بمجرَّد أن نحصل على قطعة أرضنا الصغيرة من التَّعاونيَّة، ونبني بيتنا، أن أُسجِّل في جامعة بيروت الأمريكية، وأن أُداويَ المواطنين اليهود في وطننا نحن.

وأنا أُصدِّقه. لغبائي، أُصدِّقه.

1918: أحببتُهُ وعمري ثماني عشرة سنة.

1921: تزوَّجتُهُ وعمري واحد وعشرون سنة.

بعدها، بقيتُ طوال حياتي أحمل ثِقل العالم بأسره فوق كتفَيَّ، باسم هذا الحُبِّ.

مات صموئيل سنة 1956، بعمر السِّتِّين. قَتَلَهُ العمل الجسدي الذي كان يعشقه. وعليَّ أنا إتمام مشروعه. أن أدير المزرعة. أواجه العواصف. أحاول النجاة بروحي بين حرب وحرب. بقيتُ وحيدة وأنا أحمل ثِقَل حُلمه بينما كانت أحلامي أنا تتلاشى تحت قَدَمَيَّ.

هل يُدهشُكَ هذا، يا أريك؟ أن أصف حياتي كسلسلة من الأحلام المكسورة!

أنا أُمُّكَ.

أنا الرائدة التي أتمَّتِ العودة إلى إرتز إسرائيل.

أنا التي حوَّلتْ بيَدَيْها الخشنَتَيْن أرض كفر ملال البور إلى جنَّة.

أنا التي تخفي العصا الغليظة تحت السرير، وتُبقي البندقية في متناول يدها، لكي تقتل العرب في حال تجرَّؤوا واقتربوا من سياج الحديقة.

أنا مَنْ تلجم كلَّ مَنْ يعارض حقَّنا في الأرض.

أنا! أنا! أنا التي تعطي شبابها وقوَّتها للبلاد، أمنحُها غذاءها، ألد ابنها النابغة، حاميها وملكها!

هل يزعجكَ أن أشعر بالحنين لغالفينجيجي وتفليس وروسيا ومناظرها وحروبها وجنونها؟ ربَّما كنتَ تفضِّل أن تَبقَى الولدَ الذي يتجسَّس عليَّ من ثقب الباب وأنا منكبَّة على كتابة الرسائل طوال النهار. الولد المتعطِّش للحنان الذي يتساءل لماذا تغلق أُمُّه على نفسها باب الغرفة، وتبكي فوق الدفاتر. لماذا لم تفقد، أبداً، لُكْنَتَهَا

الرُّوسيَّة؟! لماذا لم ترمِ، أبداً، كرَّاسات الطِّبِّ القديمة؟! لماذا يُظلِّل الحزن عَيْنَيْها في لحظات الانتصارات الكبيرة؟!

أنتَ وُلِدْتَ في أرض الميعاد واثقاً من انتمائكَ لإسرائيل. فماذا تعرف عن الاجتثاث من الجذور، عن المَنفَى؟ كيف أشرح لكَ أنكَ ابن مهاجرة خائبة الظَّنِّ، غريقة في أرض غريبة، وسط شعب عاقٍّ، ليست لديه الحاجة ولا الرغبة في أن تُعاد قَوْلَبَتُهُ على صورته؟ أن هذا البلد الحُلم لا يعني شيئاً للمرأة التي تريد أن تصبح طبيبة، التي تتطلَّع لأن تعيش حياة غنية في واحدة من أكبر الحواضر الأوروبية؟ أن هذا الشعب الذي عمره آلاف السنوات، والمفروض أنني جزء منه، يبدو لي شعباً عادياً؟ وأنني لا أرى نفسي، لا في عاداته، ولا في ملامحه، فما بالكَ باللغة العبرية، تلك اللغة المستحاثية التي يجهدون لإحيائها من جديد؟!

نحن في كفر ملال، أنا وصموئيل، بداية العشرينيات، عندنا قطعة أرض، ولا شيء آخر. يحيط بنا الاشتراكيون. وهم يتوقَّعون أن يفكِّر الجميع بالطريقة نفسها. هؤلاء المهابيل أنفسهم الذين يهربون من الجيش الأحمر، ينزلون أرض فلسطين، ويطالبون بمجتمع عمَّاليٍّ، مجتمع مساواة، ليس فيه غني أو فقير، مجتمع يعمل فيه الجميع للصالح العامِّ. لا بدَّ من الالتزام بإملاءات إدارة توزيع الأراضي ولجنة الرعاة، وإملاءات حزب العمَّال الذي يُوزِّع الأراضي، وإملاءات شركائهم الذين يزعجوننا بحملاتهم الدِّعائيَّة، ويصادرون حينما يحلو لهم جزءاً من أملاكنا لأجل المستعمرة المجاورة أو يفرضون علينا أن نزرع شجر البرتقال أو الليمون بدل البِطِّيخ. كان ذلك يُغضِب صموئيل، ويدفعه للجنون.

لم يكن يثق بالسلطات، وبكلِّ مَنْ يدَّعي امتلاك المعرفة أو سلطة أو أيِّ شرعية كانت، لا سيَّما أولئك الذين يعتقدون أنهم على حقٍّ. ها! بالطبع Ochividno، فالسلطة الوحيدة ذات القيمة هي سلطته هو. المعرفة الوحيدة هي ما يعرفه هو. القوَّة الوحيدة هي قوَّته هو. الشَّرعيَّة الوحيدة هي شرعيَّته. فهو، بطبيعة الحال، دائماً على حقٍّ!

كان رأسمالياً ومحافظاً وقومياً في عهد سيطرة الحزب الواحد والرؤية الواحدة. فكيف تريد لهم أن يحبُّوه؟! مَنْ يريدون الاندماج في هذا المجتمع، لا بدَّ أن يخضعوا للاشتراكيِّيْن. أمَّا صموئيل، فكان يشعر أنه ليس مَديناً لأحد. وفيما عدا اعتقاده أن لنا الحقّ في هذه الأرض، صموئيل لم يكن يشارك بقية سكَّان الموشاف بأيِّ شيء. كان يبتهج، أقول لكَ إنه يبتهج، في معارضة كلِّ ما يقوله الجيران والزعماء أو يفعلونه أو يقرِّرونه. الصندوق اليهودي، المركز الزِّراعيّ، مجلس كفر ملال، والقائمة تمتدُّ طويلاً.

كم من رسالة كَتَبَهَا لكَ في أثناء رحلاتكَ، يُفصِّل فيها كلَّ معركة في «حربه الباردة» ضدَّ «أصحاب السلطة» و»خداعهم». كانت الوجوه تشحب حين ينجح عكس كلِّ التَّوقُّعات في أن يُنتَخَب رئيساً لإدارة توزيع الأراضي، وأن يُوقِّع باسم القرية.

أنا هو مفيستو الشيطان أمام صليب فاوست!

لم تكن تنقصه الكلمات لصموئيل للاستمتاع بانتصاراته.

الموشاف! التَّعاونيَّة! المشاركة! لا أهمِّيَّة لكلِّ هذا! بعد ولادتكَ أنتَ وأُختكَ، ديتا، بنى أبوكَ سوراً حول مزرعتنا، الوحيدة في كلِّ

الموشاف التي تحوي بوَّابة، عليها قفل. إنها مسألة مبدأ! من ناحية أخرى، مرَّة جاء عامل المساحة العقارية، ووضع شريطاً شائكاً لتحديد القطعة التي سيُصادِرها، فقمتُ أنا بنفسي، وقطعتُ له ذلك الشريط. أي نعم، مَنْ دقَّ الباب سمع الجواب!

كنتُ أنا مَنْ يقوم بالعمل الوسخ. أنا مَنْ عليها مواجهة نظرات العداء بعد واحدة من فورات أبيكَ. أنا مَنْ عليها إعادة التواصل بعدما يُنشَر الخلافات والاقتتال. كان يتجوَّل في طول البلاد وعرضها. وأنا نادراً ما أخرج من القرية. يُطلِقون عليَّ لقب الإسبرطية، لجَلَدِي وتقشُّفي عندما لا ينعتوني بالمنغولية، بسبب عينَيَّ الضَّيِّقَتَيْن. أيَّامي كانت قاسية، أمَّا أيَّامه ...

آهٍ، لا أستطيع التَّنفُّس ...

انتظرْ، دَعْني ألتقط أنفاسي، يا بنيَّ. لماذا أتيتَ إليَّ، وحرَّكتَ كلَّ آلامي؟ لماذا؟! لنجلس على ضفَّة النهر. أنا بحاجة إلى شربة ماء.

آه .. أنا أفضل الآن.

كنتُ سجينة في كفر ملال. فهل كان أبوكَ سعيداً حقَّاً، رغم كلِّ يقينيَّاته؟ مَنْ يدري؟! ... إنه مسؤول عن عدَّة بساتين، بالإضافة إلى المزرعة. وهذا يتيح له التَّجوُّل في البلاد، أن يهرب من التَّوتُّر الذي يُسمِّم حياتنا اليومية. تربية الماشية، حراثة الأرض، الزراعة، رغم شَغَفه بالقيام بكلِّ تلك الأعمال، لكن تكوين جسمه الضعيف لم يكن ملائماً لها. كان في حرب مع نفسه، لكن كبرياءه أكبر من أن يعترف بذلك. أبوكَ، يعترف أنه يحنُّ، أيضاً، للأوبرا وللنزهات بين معالم تفليس

وآثارها؟ مطلقاً! في السهرات النادرة التي يأتي فيها أصدقاء ومعهم آلاتهم الموسيقية، ليشاركوه عزفه على آلته الكمان، كان الحنين يكسو ملامح وجهه بينما جسده المتعب ينتعش وصوته يصدح عالياً.

أبوكَ رسَّام أيضاً، هل تذكر المناظر التي يرسمها؟ لا تذكر هذا أيضاً، أريك؟ هذا مؤسف! في نهاره الذي يطول 16ساعة، كان دائماً يجد الوسيلة للاختفاء لكي يرسم. الفارق بين هذا الرجل والفلَّاح، وبين المرأة الإسبرطية والطبيبة، فارق غير محتمل أحياناً. نحن من أوائل مَن اقتنى جهاز راديو. نتابع فيه آخر ما توصَّل إليه العلم، وبالطبع الأحداث السِّياسيَّة حول صعود ستالين والنَّازيَّة. اهتمامنا بما يحدث وراء حدود التَّعاونيَّة أو البلد الذي نبنيه يجعل سكَّان الموشاف الآخرين في حَيْرة. وهم عندما لا ينظرون إلينا بعين البُغض، ينظرون إلينا بعين الاستغراب. العيش معاً في المزرعة التَّعاونيَّة نفسها لم يُقرِّبنا من بعضنا بعضاً. على العكس! لقد أظهر الاختلافات التي بيننا أكثر.

فإن زرع الجيران أشجار برتقال وليمون، نزرع نحن الكليمنتين والأفوكادو. فاكهتنا لا تذهب مع فاكهة الآخرين بعد الحصاد، ولا تُغلَّف بالطريقة نفسها، ولا تُباع معها، فصموئيل يُولِي أهمِّيَّة للناحية الجمالية.

العين تأكل قبل الفم.

كان ذلك المَثَل العربي الوحيد المستعدّ لتكراره. كان يُصرُّ على أن نُرتِّب حبَّات الكليمنتين في أوراقها الخضراء. وفي النهاية، أصبح

الجميع يقلِّده، لكنه وقتها كان الوحيد الذي يفعل ذلك، وكانت فكرته تُزعِج الآخرين.

عندما يتعلَّق الأمر بالتصويت لأمر ما، فعلى صموئيل اتِّخاذ موقف المعارضة أمام الأغلبية، وأنا معه، بطبيعة الحال. وعندما يخسر الحُجَّة في المجلس، فإنه يتجاهل التصويت بكلِّ بساطة، ويعمل ما برأسه! مع مرور الزمن، ارتفع جدار بيننا وبين جيراننا في الموشاف. فكانت الخصومات والنوايا السَّيِّئة جزء من حياتنا اليومية. حياتي كلُّها، تقريباً، تتلخَّص في هذا. في ترميم الأصص المكسَّرة بعد أبيكَ، إن لم أكن أنا مَنْ كسرتُها. وفوق كراهية حلفائنا المفترضين ومواطنينا، هناك كراهية العرب المحيطين بنا. من أين لي هذه الدرع الغليظة التي يُطلَق عليها جسد، برأيكَ؟

لا بدَّ من القيام بهذا اليوم قبل الغد، لا بدَّ مِنْ فعل هذا!

لا بدَّ، لا بدَّ! كلُّ شيء أوامر عند صموئيل، تلك مسألة مبدأ عنده. لكن مبادئه لم تجرّ علينا سوى الأضرار والمصائب، أليس كذلك، أريك؟ كم تعذَّبتَ، يا طفلي المسكين، من حساسيته تجاه الدِّبلوماسيَّة. كنتُ أُراقبكَ من الشُّبَّاكِ وأنتَ تتشاجر مع أولاد الجيران. كانوا يبصقون في وجهكَ وهم يحدِّثونكَ عنِّي وعن أبيكَ. لم يكونوا يَدْعُونَكَ لبيوتهم أبداً. ولم يُلبُّوا دعواتِكَ لهم قطُّ. صموئيل كان يُلقي عليكَ المواعظ عندما تعود وعينكَ متورِّمة. كنتُ أشاهدكَ من بعيد وأنتَ تُقاوِم الدموع. كنتُ أُخمِّن كلَّ ما بودِّكَ قوله. لماذا يكرهوننا، باباشكا؟ لماذا؟ لماذا؟

كان بوسعي مساعدتكَ، أن آخذكَ بين ذراعَيَّ، وأمنحكَ بعض

الحنان، أن أعترف لكَ بما يخنقني من الداخل .. لكنني لم أستطع فعل ذلك أبداً. كانت تنقصني الشجاعة. وبدل أن أهرع إليكَ، كنتُ أنزوي في غرفتي، أكتب الرسائل والمزيد من الرسائل، لأصدقائي، لأحبَّائي، لحياتي التي تركتُها، للسعادة المهجورة. فضَّلتُ العُزلة على الانفتاح عليكَ، يا بنيَّ العزيز Sinyoula... ربمَّا لو منحتُكَ بعض الحُبِّ، لَمَا كنتَ بهذا الجشع، متعطِّشاً للحرب والدماء. ربَّما أكملتَ دراستكَ في التاريخ أو في الهندسة الزِّراعيَّة، بدل سلك الجيش. فأنتَ لستَ فقط البلدوزر المدمِّر، أو المتلاعب الذي يمسك بالخيوط، أو الناقم الذي يقتل دون ندم. آهٍ، كم كنتُ أُحبُّ مباغتَتَكَ وأنتَ مُستلقٍ في حقل القمح، وأنتَ تبتسم للبلابل، وأنتَ تجفِّف دموعكَ لرؤيتكَ ولادة حَمَل صغير. ما الذي يحدث لنا، يا بنيَّ؟ متى أصبحنا محاربين مَهَرَة بهذا القَدْر؟

مياه النهر تجري، تجري ... كم هي نقية هذه المياه! ... أشتاق لتلك الأيَّام عندما كان بوسعي النوم بالقرب من النهر، تحت شجرة البتيولا دون أن يطاردَني أحد.

في الليل، يأتيني من أعماق الغابة غناء الجوقات وهي ترتِّل في قدَّاسات المساء، وأجراس الكنائس وقت الظهيرة، هل هذه تراتيل دينية أم صوت البوم؟ حمَّامات الحَيِّ المسلم القديم في تفليس تُهدهِدُني خلال قيلولتي، ومسجد الأذربيجانيِّيْن يناديني للصلاة. سلام وعتاب. أين أنتِ، يا فيرا، لماذا تركتِينا؟ لماذا تحقدين علينا؟

توقَّف الثلج.

ها قد وصلْنا الحدود. هل تشعر بالهواء الحارِّ على الضِّفَّة الأخرى للنهر؟ هل تذكَّرتَ رائحة الملح؟ فلنعدْ أدراجنا، بسرعة. لا أتحمَّل هذا، أشعر بالغثيان. ماذا تنتظرْ، أريك؟ هيَّا، اتبعْني. من هنا الطريق إلى غالفينجيجي.

تريد أن تترك الغابة، أن تعود إلى كفر ملال؟ ماذا ستفعل هناك؟ إنهم يكرهوننا هناك، ولستُ أقصد بكلامي هذا العربَ، فتاللهِ إن لدى العرب كلّ الأسباب لكي يكرهوننا. إنما أتحدَّث عن بقية الموشاف. لا أحد يحبُّنا، أريك. لا أحد! لا العرب. ولا اليهود الذين نُشاطِرُهم الحياة في المزرعة التَّعاونيَّة. إنهم يكرهون أباكَ وعنجهيَّته. ويكرهونني أنا وازدرائي للمستوطنين العوامِّ الذين يُبربِرُون بجُمَل يِدِيْشِيَّة، ويتهكَّمون على لغتي الرُّوسيَّة. نعم، مؤكَّد أنهم يكرهوننا، اليهود والعرب!

هل تعلم، يا أريك، أننا، خلال كلِّ تلك السنوات التي مضت ونحن نُنظِّم أنفسنا جماعات لأجل حماية مزارعنا، أننا لم نسأل أنفسنا إطلاقاً لماذا هؤلاء الفلَّاحون وهم سُمْر البشرة مثلنا، ويزرعون مثلنا، ويحصدون مثلنا، ويُربُّون الماشية مثلنا، لماذا كلُّ هؤلاء الفلَّاحين غاضبين جدَّاً؟ فوق أرض مَنْ نحن نعيش بالضبط؟ كيف حصلْنا على هذه الأرض؟ ثمَّ يأت أبوكَ بنظرياته التي يُكرِّرها كالببغاء:

هآرتس، بآرتس.

ليس لديه سوى هذا أمام تساؤلاتكم المحرجة، أنتَ وأُختكَ. تلك حقائق لا تجري إلَّا على ألسنة الأطفال. كان يأخذ نَفَساً عميقاً، ثمَّ يبدأ يشرح، ببطء وأناة:

نحن اليهود، لدينا حقٌّ «في الأرض»، هآرتس. العرب جميعهم مرحَّب بهم «على الأرض»، بآرتس. لكنْ، مع تفصيل صغير. لا، ليس لهم الحقُّ بالأرض. بمقدورنا استيعابهم، بل حتَّى أنْ نمنحَهُم حقوقاً، لكن الأرض سيكون لها سيِّدٌ واحد، وهو نحن، أيُّها الأولاد. هآرتس!

كنتُما تنظران إليه نظرات مشوَّشة! لا سيَّما عندما تسألونه لماذا، إذنْ، نشتري الأرض، إن كانت لنا؟! أن نقول إننا اشتريناها، ثمَّ نضحك من غباء أولئك الفلاَّحين العرب الذين لا يفهمون شيئاً في تلك الصفقات التي تجري بين الأغنياء والمستوطنين، بين الإمبرياليِّيْن الأتراك والإنكليز، بين وبين وبين ...

العرب مثيرون للشفقة، بجهلهم وبراءتهم. فإذا ما تحمَّسوا وثاروا وبدؤوا بالرَّدِّ، يجعلونني أُشفق عليهم أكثر! إنهم أجدر بالشفقة من منازع يُلوِّح بقبضته في الهواء. تنظر إليه وقواه تنهار منتظِراً سقوطه. نعم، مؤكَّد أنهم يكرهوننا، وأنا أكرههم أيضاً، جيراننا العرب أولئك، أنا مَنْ أردتُ طوال حياتي أنْ أُحِبَّ وأنْ أُحَبَّ. إنهم يستحقُّون كلَّ ما يجري لهم، فنحن أذكى منهم، وأقوى وأكثر حيلةً، وأكثر يأساً. ليس لدينا ما نخسره، ولدينا كلُّ شيء للرِّبْح.

انقلعْ، أريك! عُدْ إلى كفر ملال! وسترى أنهم يسخرون منَّا أيضاً. أمَّا أنا، فسأبقى. منذُ ثماني عشرة سنة وأنا أحاول أن أعرف نفسي. وعلى ماذا أعثر في النهاية؟ عفونة! عليَّ تسوية بعض الأمور هنا.

ما اسم ذلك الشعور؟ ندم؟ حسرة؟ قلْ شيئاً. قلْ أنا آسف، ماموشكا، آسف للغاية أنكِ ضيَّعتِ حياتكِ لأجل أبي، لأجلي، ولأجل أُختي. لأجل فكرة، سبَّبت الآلام للكثير من الناس، وأوَّلهم أنتِ.

بكلِّ الأحوال، أنتَ ذاهب، أليس كذلك، أريك؟ إلى كفر ملال، إلى إسرائيل، بلدكَ الحبيب؟ ستذهب وحدكَ، إذنْ. لن تدفعَني للمَنفَى كما فعل أبوكَ. اذهبْ! كُنْ ما تفعله هذه البلاد بكلِّ مَنْ يعيشون فيها. قَتَلَة، حقودون، بائسون. كلُّ الرجال هناك وكلُّ النساء لديهم دماء على أيديهم. لكي يُدافعوا عن أنفسهم، ويشتروا السلام، ولكي يفرضوا أنفسهم. لا قيمة للحجج، فالنتيجة نفسها: أن تخون وتكره وتقتل لأجل أن تكون.

الدَّرْس الأوَّل في الطِّبِّ: PRIMUM, NON NOCERE. لا تُؤذِ. أوَّلاً وقبل كلِّ شيء. الكلمات الوحيدة التي أعرفها باللَّاتينيَّة، الكلمات الوحيدة المهمَّة وقد خُنتُها!

عندما يتناوشني الندم، أكذب على نفسي. كلَّا، يا فيرا، أنتِ جزء من الشعب المختار، لقد تمَّ اختياركِ لتحقيق الحُلم الكبير. معكِ حقٌّ، فيرا، معكِ حقٌّ. لا تقلقي. نامي. اهدئي.

انسَي منْ كنتِ.

انسَي الفتاة التي تعدُّ النجوم.

انسَي أشجار الصَّنَوْبَر في الغابات.

انسَي فأسَ أبيكِ.

انسَي الثلج.

انسَي غالفينجيجي.

انسَي تفليس.

انسَي الطِّبَّ.

انسَي النزهات.

انسَي الوحدة.

انسَي المشاجرات.

انسَي ثمار الكليمنتين.

انسَي صموئيل.

انسَي ديتا.

انسَي أريك.

انسَي الحرب.

انسَي النصر.

انسَي الأرض.

انسَي هآرتس.

انسَي بآرتس.

هآرتس.

بآرتس.

هآرتس.

بآرتس.

هآ ... هذا الضجيج!

أَسرِعْ، أَسرِعْ، البندقية! أين هي؟ أين بندقيتي؟

هناك أشباح تلوح في الغابة.

إنهم قادمون!

مَنْ؟ ... مَنْ أنتَ؟

تكلَّمْ! تكلَّمْ وإلَّا وضعتُ رصاصة في رأسكَ!

مَنْ أنتَ؟ أَجِبْ!

كلَّا! لا تقترِبْ!

تَراجَعْ، أيُّها الغول! تَراجَعْ وإلَّا أطلقتُ النار، أيُّها العربي الوسخ!

هنا غابتي، إنها غابتي!

اخرجْ من هنا!

اخرجْ! اخرجْ! اخرجْ!

في النهر! في النهر!

سأُطلِقُ! سأُطلِقُ! سأُطلِقُ!

أريك

البيانو حزين. والنغمات تتماوج وهنى. أريك يمدُّ يده نحو النغمة، ولكنْ ...

الأمر نفسه يحدث في كلِّ مرَّة. يستمع إلى الموسيقى. ثمَّ أصوات، لا يستطيع رَبْطها بأسماء محدَّدة: نصائح الأطبَّاء، غناء الممرِّضات، المُعَالِجَة الفيزيائية وهي تشرح التمرين بكلمات بسيطة. الأصوات تُحلِّق. تدخل. تخرج من شعوره. ثمَّ، هناك الموسيقى. إن فيها دعوة لشيء ما. إنها تمدُّ خيط الحياة، لكنه يعجز دائماً من الإمساك بطرف النغمة.

يسأل أحدهم:

ماذا تفعل؟

أَخفِضِ الصوت قليلاً.

لا، لا تَلمِسِ الموسيقى.

فيجيب أوري:

هذه هي المرَّة الثالثة التي نسمع فيها المقطع نفسه، يا جلعاد. موسيقى موزارت جميلة، لكنْ، حتَّى أريك سيتعب منها.

يُخْفِض الصوت.

لا. دَعْها. دَعْها.

الموسيقى تذوب في الضباب. بيضاء. ملطَّخة. اللُّطَخ ترقص. تتحدَّد. إنها تشبه الأعين. والأفواه.

إنها تتحدَّث إليَّ. مَنْ يُكلِّمني؟

أصبح لغرفته في المشفى شكل. زوايا الجدران. ضوءُ السقف الرَّماديّ وضوءُ مصباح الطاولة الأصفر. إنه يضيء وجهاً جالساً بجانب السرير.

أريك، أنا أوري. هل تسمعني؟ ما الأمر، يا صديقي الوفي؟ هل ستُنهي إضرابكَ هذا؟ هؤلاء الحمقى في الكنيست يُفسدون كلَّ شيء في غيابكَ.

أوري ...

كم يودُّ أريك لو ينهض. لو يحضن بين ذراعَيْه هذا الرجل الذي يحدِّثه كأخيه. أن يقول له: أنا هنا.

أشعر بألم في بطني. صور تتوالى.

فيرا. الغابة. الثلج. البندقية.

لقد قتلتْني. أُمِّي أطلقتْ عليَّ رصاصة في بطني!

جلعاد! أبوكَ يحرِّك جَفْنَيْهِ.

سَقَطَت دمعة من طرف عين أريك. يَدٌ تداعب له خدَّه اليسار، وتمسح الدمعة. برز جلعاد من الضبابة.

لا تقلقْ، آبا aba. كلُّ شيء على ما يرام. وضعكَ جيِّد.

جلعاد يُعْلِم أباه عن وضعه الصِّحِّيِّ، كما لو أنه يحدِّثه عن صديق بعيد. وكلَّما تلفظ بكلمة من مصطلحات الطِّبِّ التي تثير الفزع. أزمة. نزيف. غيبوبة. جراحة. يجفِّف له جبهته برفق بمنديل ساخن.

سأنادي الممرِّضة.

شكراً، أوري، اطلبْ حضور البلبل.

مَنْ؟

سيعرفون عمَّا تتحدَّث.

حسناً. بعدها سأغادر، لقد تأخَّرتُ على موعد. إن استيقظ ...

سأُعلِمكَ فوراً. لا تَقْلَقْ.

منذُ إصابته بالسكتة الدِّماغيَّة وغَرَقه في اللَّاشعور، ثمَّ العمليات العديدة التي أُجريت له، باتت حالة أريك مستقرَّة نسبياً الآن. بل ثمَّة إشارات حياة. إنه يفتح عَيْنَيْه حين يسمع صوت جلعاد. نظرته تتوه في الفراغ، لكن جلعاد واثق أنه يعرف مَنْ هو.

منذُ بضعة أسابيع، فاجأ جلعاد ممرِّضة جالسة بجانب السرير، وبيدها كتاب:

ماذا تقرئين؟

حكاية جندي في حرب الـ48.

تعنين حرب الاستقلال؟ أبي كاد يموت فيها.

لكنه لم يمت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

والآن، هل هو حَيٌّ؟

إنه في مكان آخر.

هل سيكون هو نفسه إن حَدَثَ واستيقظ في يوم ما؟

كلُّ شيء ممكن.

ملامح وجهها رقيقة، وقد رَبَطَتْ شَعْرها على شكل ذيل حصان. لون شَعْرها أشقر، لكن بشرتها حنطية. امرأة ذات جمال هارب، بدون عمر.

وضعت الكتاب فوق رزمة من الكُتُب.

انتظري. هل أستطيع رؤية الكتاب؟

تفضَّل، أرجوكَ.

كتاب مكتوب باللُّغَتَيْن، العربية والعبرية. المؤلِّف: س. يزهار S. Yizhar، يهودي. العنوان: خربة خزعة Khirbet Khizeh، اسم قرية عربية.

بأيِّ لغة تقرئين؟

وما الفرق؟

أجابتْه الممرِّضة، ثمَّ اختفت.

يُلقِّبونها البلبل، كما قال له أحد الأطبَّاء لاحقاً.

لماذا؟

سادت لحظة ارتباك.

اممم ... لأنها تتعامل مع الحالات الصعبة.

البلبل. على اسم رائدة التمريض فلورنس نايتنغال Florence Nightingale . الآن فهمتُ.

هي مَنْ أصرَّتْ أن نُشعل التلفزيون. بل حدَّدت للمساعِدة مواعيد البرامج المفضَّلة لدى أبيكَ.

كيف تعرف برامجه المفضَّلة؟ لا أهمِّيَّة لذلك. لاحَظَ الأطبَّاء ردَّة فعل. جلعاد لم يعد الوحيد الذي يعتقد أن أريك لا يزال حَيَّاً، وأنه ربَّما يصرخ تحت جسده الهامد.

لقد تسبَّب النزيف بآثار جانبية رهيبة، لكنه لم يؤثِّر على الأجهزة في الجسم. مُختصُّو الأعصاب ومُختصُّو الإنعاش ومُختصُّو علم وظائف الأعضاء ومُختصُّو العلاج بالتدليك ومُختصُّو العلاج الطَّبيعيِّ. فريق كامل يقوم بالمعالجة والمداواة. بعضهم يُحفِّزون دماغه بدفعات كهربائية، البعض الآخر يضعون تحت أنفه أطباقه المفضَّلة: السمكَ المَحشيَّ المَشويَّ، فطائر على الطريقة الهنغارية مُشبَعة بالزبدة، حلوى من كلِّ الأشكال وكلِّ النكهات. تلك الأكلات التي كانت ليلي تتفنَّن في طبخها، وأريك يموت فيها. أدنى حركة تبدر من «العملاق

النائم» - وهو اللقب الذي أطلقه الطاقم الطِّبِّيُّ على أبيه - كانت تفحص وتُحلِّل.

عندما قامت الحرب بين إسرائيل وحزب الله في لبنان، بعد دخول أريك الغيبوبة ببضعة أشهر، عارضت البلبل الأطبَّاء الذي خشوا من تأثير الصور العنيفة عليه. ونصحوا ببَثِّ البرامج الوثائقية عن الحيوانات أو الموسيقى الكلاسيكية. موسيقى موزارت بخاصَّة، الموسيقي المفضَّل لأريك. أو بالأحرى لليلي، زوجته التي يعشقها.

ثمَّ بَتَّ جلعاد بالأمر:

الممرِّضة مُحقَّة. لو علم أبي أننا نمنعه من متابعة الأخبار، لحقد علينا.

أُمُّه، ليلي، هي مَنْ يُحبُّ الموسيقى والفنون. هي مَنْ جعلت أريك يكتشف متعة الاستماع لموزارت. أمَّا هو، فالحرب هي ما يثيره. بفضل ليلي، استعاد الرابط مع طفولته وأوقاتها السعيدة: أبوه وهو يعزف الكمان في المساء أو يدندن لحناً أوبرالياً وهو في طريقه للسوق.

أيَّام السبت، تأتي زوجة جلعاد، إنبال، لإلقاء السلام على أريك، هي وأولادها. إنبال تُحضِر معها أزهاراً مقطوفة من مزرعة الجُمَّيْز. ذلك المكان الذي كان ملاذاً لأريك من صخب الحياة. وفيه اكتشف أوَّل الأمور التي يُحبُّها ومارسها: الزراعة وتربية المواشي. في تلك المزرعة عاش مع ليلي أجمل سنوات حياتهما، على تخوم صحراء النقب. تضع إنبال باقة أزهار شقائق النعمان في مزهرية مقابل السرير. الأولاد

يُبدِّلون أماكن صور العائلة التي تملأ الغرفة. فلا يضطرُّ أريك إلى أن يشاهد الوجوه نفسها أسبوعاً بعد أسبوع.

ثمَّة صورتان لم تتحرَّكا إطلاقاً من الصالون في مزرعة الجُمَّيْز؛ صورة فيرا وهي تحت الشمس، وجهها مُسمَرٌّ وضفائرها الشقراء تتطاير في الهواء، وصورة ليلي وهي بالجينز مستندة إلى سياج خشبي، وخيول ترعى وراءها.

لديَّ مفاجأة لكَ، آبا aba.

أخرَجَ جلعاد صور أُمِّهِ وجَدَّتِهِ. فجأة، لَمَحَ حركة. هل حرَّك أريك إصبعه؟ شيء ما يلمع في عَيْنَيْه. هرع الطبيب إلى الغرفة.

أجرى سلسلة من الاختبارات، ثمَّ أعلن:

ردَّة فعل فسيولوجي. هذا لا يعني، بالضرورة، أنه استعاد وعيه.

ولتخفيف الأمر، مَنَحَهُم الطبيب نفحة أمل:

أتدري، يا جلعاد؟! الدماغ البشري سرٌّ كبير. وبكلِّ ما توصَّلْنا إليه من معرفة، نحن بالكاد حَكَكْنَا القشرة. كلُّ شيء ممكن.

قال ذلك، ثمَّ خَرَجَ من الغرفة.

اقتربت البلبل، خيالها مشرق في ضوء النيون الطاغي.

سألها جلعاد وهو يُحدِّق في أبيه:

هل يسمعنا؟

ربَّما نعم، وربَّما لا.

هل يفهمنا؟

فلنتصرَّف كما لو أنه يسمعنا ويفهمنا.

وضع جلعاد صورة فيرا في مواجهة أريك.

فاختلَّ عمل جهاز قياس النبض.

تشوَّشت نبضات القلب. وهبط الضغط الشَّريانيُّ هبوطاً متسارِعاً. انطلق جرس الإنذار. وتحرَّكت إشارات حمراء وخضراء على جميع الشاشات. انتفض الحارس الشَّخصيُّ الواقف على الباب باستمرار، واقتحم الغرفة شاهراً سلاحه على الآلة. خطوات مذعورة في الممرِّ. وقبل أن يعود جلعاد إلى رشده أو يفهم ما جرى، كانت الممرِّضات والمُسعِفُون قد أخرجوه من الغرفة هو والحارس الشَّخصيّ. سَقَطَت صورة فيرا أرضاً، وتقاذفتْها أقدام الفريق الطِّبِّيِّ ككرة القَدَم. اقتيد أريك إلى غرفة العمليات.

في غرفة الانتظار الملحَقَة بقسم العناية المشدَّدة، كان جلعاد ينتظر مُطرِقاً مرتبكاً. مرَّت ساعة. ساعتان. ثلاث ساعات. أربع ... فَقَدَ الإحساس بالوقت. فجأة، ها هي هنا. المرأة ذات اسم العصفور، كأنها الشبح، مُطمئنَّة بشكل غريب. هزَّت الإطار المكسور فوق سلَّة المهملات. سَقَطَ الزجاج المكسَّر، وبرز وجه فيرا.

خُذْ ... أنا آسفة.

أخذ جلعاد الإطار:

شكراً.

راح يداعب صورة جَدَّتِهِ الباهتة.

ماذا يحدث لآبا aba، فيروشكا؟ أين هو؟ معكَ؟ لماذا بدرت عنه ردَّة الفعل هذه؟

ظلَّت الصورة جامدة.

الروتين لم يتغيَّر. وصحَّته جيِّدة. لا يعاني من تقرُّحات الفراش أو جلطات في الدم، لا التهابات في الرئة ... لا شيء من هذه المضاعفات. أترين، فيروشكا؟ أصبحتُ خبيراً في الطِّبِّ، أنتِ مَنْ أردتِ أن أكون طبيباً. كلُّ شيء على ما يرام بالنسبة إلى آبا. فلماذا، إذنْ؟

جلعاد.

إنه أوري دان واقف أمامه، وقد امتقع لونه. ولا أثر للبلبل.

أوري ...

من بين جميع أصدقاء أريك، كان تأثير الحادث على أوري مدمِّراً أكثر من أيِّ شخص آخر. لم يحدث أن وجدت علاقة بهذا القرب بين سياسيٍّ وصَحَفِيٍّ قطُّ. فأسطورة شارون قد وُلِدَت بفضل أوري، وما كان أوري ليُصبح المراسل الحربي الذي هو عليه الآن بدون أريك. اقتحم عليه مكتبه دون إذن، ذات يوم من سنة 1954؛ كان صَحَفِيَّاً، بالكاد يبلغ عمره تسع عشرة سنة. شابٌّ متَّقد حماسة. كان يريد المشاركة في العمليات الجارية في الأراضي العربية، أن يصبح مراسلاً

حربياً. طَالَبَهُ أريك، وكان وقتها برتبة مقدَّم، وعمره ستٌّ وعشرون سنة، باتِّباع دورة ضبَّاط وتدريب مظليٍّ وقتاليٍّ؛ وكلُّهُ يقين أن الفتى لن يزعجه مرَّة أخرى بعد أن تُنهكَه التدريبات تماماً. لكن أوري عاد! وبقي مع القوَّات على مدى عامَيْن، في قلب معارك القمع ضدَّ الثُّوَّار الفلسطينيِّيْن في غزَّة والضِّفَّة تحت إمرة شارون الذي رُقِّي إلى رتبة عقيد. وكانت تلك بداية صداقة طويلة.

عندما ينتقد أحدُهم انعدامَ الموضوعية لديه، يضحك أوري، ويقول:

لا شيء يجعلني أقول كلاماً سيِّئاً بحقِّ أريك!

كم كان ولاء أوري لأبي في كلِّ الظروف سبباً في رَفْع معنوياته، لا سيَّما عندما كان الجميع يريد رأسه، فكَّر جلعاد بينه وبين نفسه وهو يحدِّق في الصَّحَفِيِّ. هرع إلى المشفى ما إن عَلِمَ بحدوث الأزمة. ومنذُ أن دخل شارون الغيبوبة وهو يتيم، تائه، مكتئب، عاجز عن قبول قَدَر الرجل الذي كان في عَيْنَيْه رجلاً لا يُقهَر. هو مَنْ أطلق على أريك اسم «ملك إسرائيل» بعد عبور سيناء في حرب 73 ضدَّ مصر. حتَّى الفلسطينيون يعترفون بقوَّته. إنه الأقبح والأكثر شرَّاً. ولديه حضور كبير في كوابيس منافيهم القَسْرِيَّة، واجتثاثهم من جذورهم، وفي حكايات بطولات الشعب المضطَهَد.

البلدوزر!

جزَّار بيروت!

هي ألقاب كانت تروق لأريك، في السِّرِّ.

الأفضل أن يخشاكَ الناس من أن يُحبُّوكَ.

هذا ما كان أوري يقوله دائماً عندما يشعر أن الأسد العجوز يترنَّح أو حين ترتسم على ملامحه بوادر شكٍّ، لا سيَّما سنة 82، بعد صبرا وشاتيلا.

كانت الصِّحَافَة العالمية تصيح:

مجازر!

والمناصرون للفلسطينيِّيْن يقولون:

جريمة حرب!

بينما العالم بأسره يتَّهم:

وحش!

وفيما النخبة الإسرائيلية، تلك العصابة من مصَّاصي الدماء، يغتابون أريك، الجنرال ووزير الدفاع، وفيما هم يستمتعون بتوصية لجنة التحقيق كهانا بإعفائه من وظائفه، كان أوري يدافع عن صديقه بكلِّ ما تمنحه مهنة الصِّحَافَة من وسائل.

مئات من النساء والأطفال الفلسطينيِّيْن ذُبِحُوا!

ما على عرفات إلَّا أن يلوم نفسه لتجرُّئه على مقارعة إسرائيل.

الكتائب المسيحية انقضَّت على اللَّاجئين كالوحوش!

هذه حرب أهلية. ما علاقتنا نحن بالموضوع؟

أنتَ تُسلِّحهم وتُدرِّبهم وتغزو البلد، ثمَّ تُقدِّم لهم المخيَّم على طبق من فضَّة!

هذا ما ندعوه استراتيجية عسكرية.

مَنْ نشر قوَّات التساهال في المنطقة حتَّى وصل بيروت؟

أرييل شارون. وماذا في ذلك؟

مَنْ ترك وراءه طريقاً من الدم والدمار؟

أرييل شارون! الذي لم يُخفِ نواياه في يوم من الأيَّام: لا بدَّ من تصفية ياسر عرفات ومنظَّمة التحرير الفلسطينية. لو لم نمنعه من تصفية عرفات في بيروت، لَمَا كان علينا أبداً التفاوض مع هذا الأفعى في أوسلو. لماذا نكتفي بالسلام حين يمكننا الحصول على النصر؟

لقد فَقَدَ الرجل الواقف أمام جلعاد كلَّ أَلَقِهِ وحيويَّته، وبدا نحيفاً جدَّاً. أوري الصَّحَفِيُّ أصغر من أريك بسبع سنوات، لكن الشيخوخة تمكَّنت منه منذُ أن سَقَطَ صاحبه.

هل من جديد؟

لا يزال في غرفة العمليات.

يناوله جلعاد صورة فيرا.

يا لها من سيِّدة! إن كان لا يزال حَيَّاً، فبفضلها. امرأة قاسية، في زمنٍ قاسٍ، أنشأت رجلاً قاسياً.

بأيِّ ثمن، يا أوري؟ لقد جعلوا منه وحشاً.

وهل الأمر في هذا السوء أن تكون وحشاً بين الوحوش؟

جلعاد يودُّ أن يعرف العالم الأب الحنون الذي لم يكن يُفوِّت إطلاقاً أيَّ مناسبة ليُعانقَهُ بذراعَيْه؛ الرجل المبتهِج الذَّوَّاقة قبل السِّياسيِّ المتطرِّف في كلِّ شيء، والمستعدّ لتدمير كلِّ شيء لمجرَّد نزوة؛ المزارع الحريص على تسمية كلِّ شجرة أفوكادو وكلِّ حَمَل قبل الرجل العسكري الذي لا يتردَّد في نَسْف البيوت فوق رؤوس أصحابها العرب. خلال الانتخابات، استبسلت الصِّحَافَة اليسارية في تذكير المواطنين بمساوئ أبيه وأخطائه، حتَّى وصل بها الأمر اتِّهامه بالتَّورُّط فيما يجابهه ابنه عُمري من نزاعات مع القضاء. قضايا فساد تتعلَّق بتمويل الانتخابات، تزوير وثائق، وشهادات زُور ... أريك رفض أن يترك ابنه وحيداً أمام الذئاب. وبدل أن يُنظَر إليه لذلك كأبٍ مثاليٍّ متفانٍ، تمَّ استغلاله لتلطيخ سمعته! وقد عقد جلعاد العزم على أن يكتب ذات يوم سيرة أبيه، وأن يلجم أفواه منتقديه.

لا يهمُّني، آبا aba، أن تكون شريكاً لعُمري أو لا، أن تكون قاتلاً أو لا. مَنْ قتلتَ؟ كيف؟ لا يهمُّني البتَّة! استيقظْ، هذا كلُّ ما أطلبه منكَ.

ظلَّتْ تضرُّعات جلعاد محصورة في حَنْجَرَتِهِ. وأريك في غرفة العمليات. ليس هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار حتَّى يحين الوقت لتوضيح كلِّ ما حَدَثَ.

في بداية الحملة الانتخابية، اقترح المستشار السِّياسيُّ الأمريكي، فينكلشتاين Finkelstein، على أريك أن يُلمِّع صورته أمام الناس بالتركيز على وضعه كجَدٍّ وربِّ أسرة. أبدى جلعاد دَعْمَه للفكرة. لكنها

أسخطت أوري، مثله مثل كلِّ مَنْ يقدِّسون شارون، الجنرال القوي الشديد البأس.

أتتحدَّثون عن «جَدِّ الأُمَّة»؟ هل أنتُم جادُّون فيما تقولون؟

رغم تعبه من كثرة التَّمرُّد ضدَّه في داخل الحزب الذي أسَّسه قبل ثلاثين عاماً، رفض أريك الانضمام لِلِّيكود. حتَّى إن كان الشعب معه، إلَّا أن ردَّة الفعل على الساحة السِّياسيَّة لم تكن ناعمة. قالوا البلدوزر يجرف حزبه الذي أسَّسه! الترياق الوحيد لإنقاذ رأسه المحروقة هو أن يُظهِر رأسه البيضاء. أن يتباهى بتقدُّمه بالعمر بدل أن ينافس الأصغر منه. أن يلعب ورقة الخبرة، أن يستغلَّ التعاطف الذي يثيره الكبار بالسِّنِّ، لا سيَّما عندما يكونون محاطين بأحفادهم.

نجحت الحيلة، بشهادة استطلاعات الرأي. والنتائج قاطعة: لقد ربح حزب كاديما الانتخابات، رغم حداثة تأسيسه.

قال جلعاد كاسراً الصمت:

هل تذكر بداية الحملة الانتخابية، يا أوري؟ فينكلشتاين كان مُحِقَّاً.

بدا الانزعاج على أوري، فوضع صورة فيرا جانباً.

لقد جعلت الانتخابات من أبيكَ عجوزاً، لا حول له، ولا قوَّة. وها هو أريك، مُلقَى على سرير تحت رحمة الجرَّاحين بينما الآخرون يستمتعون بانتصاره!

هذا ليس له علاقة بالأمر مطلقاً. أبي يصارع بين الحياة والموت بسبب طباعه وشَرَهِهِ للأكل. والناس كانت تُحبُّه لأجل ذلك.

كلَّا، ليس لأجل ذلك. هذه الهشاشة هي عكس كلُّ ما يعرفه أوري عن أريك، المشاكس، المغامر، الوقح، وعكس سيرة الرجل التي كرَّس الصَّحَفِيُّ حياته المهنية لكتابتها. الممرِّضات يُطلقْنَ عليه اسم «العملاق النائم». يا للمهزلة! لقد خَلَقَ منه أوري دان أسطورة راسخة، لا تتزعزع، أسطورة مُؤسِّسَة. والأساطير لا تموت. لا يمكن لها أن تنتهي بهذه الطريقة المضحكة.

في البداية، كان أوري يرابط في المشفى طوال أيَّام الأسبوع دون انقطاع، وكلُّه قناعة أن أريك لن يتأخَّر في الاستيقاظ والاستهزاء بكلِّ هذه الوجوه.

لقد نلتُ منكم! كنتُ بحاجة إلى بعض الراحة، هذا كلُّ ما في الأمر. في هذه البلاد، عليكَ أن تمثِّل دور الميِّت حتَّى يتركك الناس وشأنكَ.

ماذا كان أوري ليعطيَ، كي يسمع ذلك الصوت الساخر الآن؟ ...

انهضْ، يا جلعاد، إرث أبيكَ في خطر. في نيسان، أعلن مجلس الوزراء أن أريك مصاب بعجز تامٍّ ودائم. وبالإجماع، يا جلعاد. عجز تامٌّ ودائم. ومَنْ يدير البلد الآن؟ إيهود أولمرت!

أوري لم يفهم إطلاقاً ماذا يرى أريك في هذا الرجل. وبينما هو غارق في الغيبوبة، ها قد جرَّ أولمرت البلادَ نحو حرب مع حزب الله كانت خاسرة على كلِّ الجبهات: فلم ينجحْ، لا في استرداد الجنود الذين اختطفتْهُم الميليشيا اللُّبنانيَّة، ولا في تدمير هذه الأخيرة!

ماذا تفعل، يا أريك، في غرفة العمليات؟ بحقِّكَ، ألم تضجرْ؟ نحن في الـ2006، العام عامكَ!

يتردَّد صوت أوري في الممرِّ، ولا يجد جواباً سوى تنهيدة جلعاد.

منذُ الانسحاب من غزَّة، وأريك بات صعب المراس. السيطرة على الأرض بإقامة المستوطنات. عدم تقييد الأرض الإسرائيلية بجدران أو بحدود صلبة أبداً، أبداً. يجب ترك الطريق مفتوحاً للتَّوسُّع. وأن نضع الفلسطينيِّيْن والعالم أجمع أمام الأمر الواقع.

حرب دفعة واحدة.

مستوطنة دفعة واحدة.

بلدوزر دفعة واحدة.

تلك هي رؤية أريك التي دافع عنها كلّ حياته.

فجأة، خرج عليهم بخطَّة فكِّ الارتباط مع غزَّة. تفكيك المستوطنات. هذا التَّحوُّل بزاوية 180 درجة لم يتقبَّله أوري. حاول أريك جهده أن يشرح له الأسباب الاستراتيجية كافَّة وراء القرار: إعلان بوش ضدَّ حقِّ عودة ملايين اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن المهجرين منذُ 1948، وللحفاظ على كبرى المستوطنات في الضِّفَّة. إنها «خريطة طريق» أمريكية نحو إيجاد حَلٍّ للصراع، معمولة على قياس إسرائيل، وهي، علاوة على ذلك، تتجاوز القانون الدّوليّ واتِّفاقيَّات جنيف والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقرارات الأمم المتَّحدة، وتقفز فوقها. كلُّ ذلك الجهاز القضائي المزروع كالشوكة في قَدَم إسرائيل منذُ سبعين عاماً. إنها «الصِّهيُوْنِيَّة البراغماتية» في خدمة إسرائيل، المصطلح المقدَّس لدى أريك، وقد ورثَهُ عن أبيه.

لكن البراغماتية ليست لعبة أوري. وإن كان يفهم شيئاً، فهو قوَّة الصورة. جنود يهود يقتلعون مستوطنين يهود من أرض استولينا عليها؟ هذه صورة لا يمكن تقبُّلها. فعل أوري كلَّ شيء ليثنيَ صديقه عن قراره. لكن أريك المشهور بعناده، ظلَّ على موقفه، ولم يتحرَّك قيد أنملة.

الأمر يتعلَّق بأربع مئة مزرعة، لا أكثر. سيتمُّ تعويضهم.

لم يتوقَّع أوري إطلاقاً أن يكتب يوماً ما كلاماً قاسياً بحقِّ أريك. وها هو يجادله في لقاءاتهما، وينتقده في الصِّحَافَة. ويرتدي، في برنامجه على القناة الإسرائيلية الأولى، ربطة عنق برتقالية، في إشارة لتضامنه مع المستوطنين. لم يكن أريك يُفوِّت أيَّ حلقة من حلقات أوري، وقد أغضبتْهُ هذه الأخيرة، لدرجة أنه أطفأ الجهاز. اعتاد أوري أن يتَّصل به أريك بعد كلِّ مداخلة تلفزيونية له. لكن الاتِّصال لم يأتِ هذه المرَّة. كان لا بدَّ من تدخُّل صديق مشترك ووعد أمام أُمِّ أريك، فيرا، بألَّا تقطع العلاقة بينهما أبداً، لإنقاذ صداقتهما.

كلُّ هذا قد حَدَثَ السنة الماضية. كما لو أنه حَدَثَ منذُ عشر سنين. سنة 2005 تبدو بعيدة. لا يستطيع أوري أن يمنع نفسه من تحميل السكتة الدِّماغيَّة مسؤولية الليونة الإيديولوجية التي يُبديها أريك. إنها انزلاق خطير. والضعف يجرُّ الضعف. والحادث كان صدمة قاسية للجميع؛ أمَّا بالنسبة إلى أوري، فالأمر هزيمة شخصية وسياسية، في آنٍ واحد. كما أن مسيرته المهنية برمَّتها تعتمد على مسيرة صديقه، الرجل الذي يمثِّل أفضل ما تملكه إسرائيل قاطبةً: القوَّة والجرأة والسطوة.

خفَّت زياراته للمشفى، إنما لم يكن يمرُّ يوم دون أن يستعلم عن صحَّة أريك، إمَّا من طبيبه أو من جلعاد. ومن وقتٍ لآخر، يُحضر كرَّاساته، ويقرأ لصديقه مقاطع من لقاءاتهما العديدة. خمسون عاماً من المحادثات. صدر الكتاب، لكنْ، ما الفائدة منه؟ فأريك ليس هنا، ليُهنِّئ رفيقه.

انتابت أوري نوبة من السعال.

قلقي عليكَ سيُمرِضني، يا صاحبي. وإن لم تستيقظ، فأسألحق بكَ.

خطوات في الممرِّ. الجرَّاح يقترب والبلبل تسير إلى جانبه.

طَمْئِنَّا، يا دكتور.

السَّيِّد شارون حَيّ، لكنْ ... اضطُرْرنا لاستئصال ثلث أمعائه الغليظة.

ساد الصمت.

ثمَّ همست البلبل:

إنه يعيش، يا جلعاد، يعيش.

حتَّى متى؟ ...

هو مَنْ سيُقرِّر، إن كان يريد أن يموت.

أُعيدَ أريك إلى غرفته. بالنسبة إلى عيون جلعاد وأوري، هو لا يزال أخرسَ، عَصِيَّاً على الفَهْم، بينما هو يُكافِح، لكي يُسمِعَ صوته.

أنا هنا. أنا هنا. أنا هنا!

آبا aba. مرَّت العملية على خير. ستأتي إنبال والأولاد ومعهم فلافل، وإلى جانبها الباذنجان المتبَّل بالخلِّ والثوم، كما تحبّ ...

سَكَتَ جلعاد. إذ لم يعد لدى أبيه ما يكفي من الأمعاء، ليستمتع بطبقه المفضَّل.

لم يعد لديَّ ما يكفي من الأمعاء.

نتيجة التقرير تتردَّد في جنبات الغرفة. من جلعاد إلى أريك إلى أوري إلى جلعاد إلى أريك. صريحة، لا رجعة عنها.

أريك يتنفَّس. الهواء يدخل من أنفه، ويخرج من الثقب الذي تركتْهُ رصاصة أُمِّه فيرا في بطنه. الهواء يتسرَّب. كلُّ شيء يفرُّ منه. الموسيقى. أنفاسه. صوته. إنه يُفرِّغ من نفسه. يُغلِق عَيْنَيْه، يتكوَّر على نفسه كَمَنْ يريد صُنع عقدة. أن يسدَّ الثقب.

حسناً، لقد أحدثوا ثقباً في بطنكَ، ولكنْ، ما قيمة ثقب أمام كلِّ ما عشتَهُ في معركة اللطرون؟ كاد العرب أن يُخصُوكَ سنة 48. لكنكَ عشتَ. زحفتَ على الأرض وأنتَ تنزف طوال الطريق. خسرتَ تلك المعركة ونصف قوَّاتكَ. وفي مواجهة الموت، رجعتَ أقوى! فأسَّستَ وحدة الكوماندوز 101، وأخذتَ بثأركَ.

أوري كان يتكلَّم ويحكي. كلُّ شيء وأيُّ شيء. أيُّ شيء إلَّا هذا الصمت. حقائق واضحة، لا إبهام فيها.

اضغطْ إصبعي، يا أريك، إن كنتَ تسمعني.

ضَغَطَ أريك، ثمَّ ضَغَطَ على سبَّابة صديقه الصَّحَفِيِّ، عبثاً.

حتَّى إن كان واعياً، فهو لم يتعافَ من الجراحة بعد، يا أوري. دَعْهُ يَرْتَح.

رأيتُهُ يحرِّك جَفْنَيْهِ.

هذا فعل لا شعوري، كما يقول الأطبَّاء.

وأنتَ؟ هل أصبحتَ تُصدِّقهم الآن، يا جلعاد؟

كلَّا! أنا هنا. أنا أسمعكم. أشعر بكم. أنا أشعر بيدكَ، يا جلعاد. أشعر بإصبعكَ النحيل، يا أوري. تكلَّمْ! احكِ لي عن وحدة الكوماندوز 101.

أريك؟

نعم! نعم!

أريك.

ذلك الصوت!

استجمع كلَّ قوَّته، وفتح جَفْنَيْهِ. أوري. جلعاد. ثمَّ رآها خلف جلعاد. نعم، هي. المرأة - الصوت التي تُحدِثه في شبه العَتْمَة. من أين أَتَتْ؟

أريك.

أَلَا يُدرِكان ما يحدث؟ جلعاد! أوري! إنها هنا!

عيناه مفتوحتان، يا أوري. هذا صحيح. هل يرى ملائكة؟ أناساً ميّتين؟

لا أهمِّيَّة لذلك. طالما أنهم ليسوا أعداء.

ليس هم، بل هي. لا تذهبوا. لا تتركوني معها!

أريك.

نعومة صوتها تجعله يقشعرُّ. بُؤبُؤا عَيْنَيْه يتحرَّكان باضطراب. نحو اليمين، ونحو اليسار. في كلِّ الأرجاء إلَّا باتِّجاه هذه المرأة. منذُ قليل، كانت ترتدي قناع أُمِّه. أُمُّه طردتْه، وضعتْ رصاصة في بطنه.

لا تَخَفْ، يا أريك.

مَنْ هي هذه المرأة؟

لماذا تتجنَّب نظرتي؟ ألم أفعل ما طلبتَهُ منِّي؟ ألم آخذكَ إلى بداية القصَّة؟

مَنْ هي؟

قل اسمي. أنتَ تعرفني.

إنها تتكلَّم بصوت عالٍ. صوتها يقتلعه من ذلك العالم الآخر الذي يودُّ جدَّاً أن يعود إليه، هناك حيثُ يلتقي أولاده وأحفاده، هناك حيثُ يعود من جديد الرجل القوي، المحارب، الأسد العجوز، البلدوزر، نعم، والسَّفَّاح، لمَ لا؟! كلُّ تلك الشَّخصيَّات التي ذكَرَها أوري. كلُّها ما عدا العملاق النائم.

أريك، أنتَ لم تعد من عالمهم. شَفَتاكَ جافَّتان.

جلستُ بجانب السرير. عند أسفل قَدَمَيْه، هناك كُتُبٌ مُكدَّسة فوق بعضها ووعاء مليء بالثلج. منذُ متى وهو هنا هذا الوعاء؟

إنه من الغابة.

وضعتُ له ملعقة ثلج في فمه. برودة الثلج ونداوته جعلتْهُ يشعر بالارتياح. استعاد وجهه رونقه.

مسحتُ له جبهته.

أين هم؟ أوري اختفى. جلعاد اختفى.

اِهْدَأْ، اِهْدَأْ، يا أريك. فما تراه ليس ما يريانه. المكان مكانان، هنا وهناك. وأنتَ لستَ لا هنا ولا هناك.

أين هو؟ أين؟

في الفراغ.

أين هي؟ من أين جاءت؟

منكَ.

بلَّلتُ قطعة القماش بمياه الثلج الذائب، وضغطتُها على جبهته. سال الماء المثلَّج على جَفْنَيْهِ، وعلى طول أنفه، وفي أخاديد التجاعيد.

أرهقتْهُ النداوة المتسرِّبة داخل جِلْدِه. الماء يتدفَّق ويتدفَّق. أسرع. أقوى. يفيض من فوق سريره. ينتشر فوق الأرضية. يصعد الجدران.

يُغرق الغرفة. المفروشات تتأرجح. الصور تطفو. تبتلعها المياه. السرير يتحلّل. التَّيَّار الذي كان يهمس همساً، صار هادراً. تجمَّع الزَّبَد فوق الدَّوَّامات عديمة اللون.

إنها تُغرِقني. إنها تُغرِقني!

اِغْطِسْ، يا أريك.

إنه في النهر.

فيرا. أُمُّه. البندقية.

الصورة تصعقه. تتشرَّبه.

فيرا. البندقية. الغابة.

فيرا. الرصاصة. النهر.

الطلقة قذفتْهُ إلى النهر.

الماء الجليدي يختلط بدمه المندفع من بطنه. الغابة تمرُّ أمامه على الضِّفَّة. بين جذوع شجر الصَّنَوْبَر وخيال أُمِّه والبندقية المُلقاة على كتفها.

وعندما خرج الدخان من فُوَّهَة البندقية، انكمشتْ فيرا. وسحبتِ التَّيَّارات أريك بعيداً.

كلَّا، لن أنتهيَ هكذا!

حرَّك يَدَيْه بشدَّة، ثمَّ قَدَمَيْه.

اسبحْ. اسبحْ. اسبحْ!

كان يعطي لنفسه الأوامر. يواسي نفسه. يوبِّخ نفسه. المهمُّ أن يبقى على قَيْد الحياة.

تعلَّق شيء ما بكعبه. إنه يجذبه نحو الأسفل. الماء يصعد. قطعة السماء الزرقاء تتلاشى. مَدَّ عنقه، أَخْرَجَ يَدَهُ، ليُوقِفَ الفيضان. الماء اِلْتَهَمَ السماء. يجتاح فمه، حَنْجَرَته، مِنْخَرَيْه، عَيْنَيْه.

لم يعد هناك أُفُق. كلُّ شيء يطفو حوله.

شَعَرَ بمجسَّاتٍ تتسلَّق على طول ساقَيْه.

أذرع وأيادٍ وأصابع تقبض على فخذَيْه.

المياه تحوم في دوَّامات.

فتبرز صور.

أنهار.

وديان.

منحدرات.

انفجارات.

صياح.

قرى.

أشلاء.

جثث.

جدران.

شوارع.

فُوَّهَات براكين.

أريك!

صوت المرأة يرتجُّ في الماء.

عُدَّ السنوات. عُدَّ الأموات. 1948... 53 ... 56 ... 67 ... 71 ... 73 ... 82 ... 87 ... 2000 ... 2002 ... 2005.

راح يجدِّف كالمجنون نحو السطح.

تنفَّسَ!

انتزع نفحةَ هواء. شدَّتْهُ ماصَّاتٌ إلى قَعْر النهر بقوَّة مجدَّداً.

عُدَّ القرى. عُدَّ ساحات الحرب، يا أريك. دير ياسين ... كفر قاسم ... قبية ... السويس ... سيناء ... القُدْس ... الجولان ... بيروت ... قانا ... رام الله ... غزَّة!

أريك يختنق.

تنفَّسَ!

أطلقتْهُ الماصَّاتٌ. فانطلق نحو النور. شَفَتاه مفتوحتان. بسرعة. أكسجين. أكسجين!

عُدَّ المخيَّمات، يا أريك. جباليا ... خان يونس ... رفح ... بلاطة ... جنين ... صبرا ... شاتيلا ... نهر البارد ... عين الحلوة ... اليرموك ... الزرقا ... برج ال ...

رئتاه تنقبضان. تنفجران. الانفجار يخرج من مِنْخَرَيْه. من فمه. الهواء ينزف منه. والرصاص، الرصاص في كلِّ مكان! تلتحم الواحدة بالأخرى. تتخثَّر. تشكِّل مجسَّات. تحيط به. تُقيِّده كالسلاسل. ثمَّ يبدأ كلُّ شيء من جديد.

قُذِفَ نحو الأعلى.

تنفَّسَ!

ثمَّ شُفِط نحو الأسفل.

أُغرِقَ. بُصِقَ. التهمتْهُ الماصَّاتُ من جديد. ثمَّ بصقتْهُ من جديد.

عُدَّ المستوطنات، يا أريك. عشرة ... عشرون ... أربعون ... ستُّون ... ثمانون. مئة وعشرة ... مئة وعشرون ... مئة وثلاثون ... مئة وأربعون! عُدَّ الحواجز. الأراضي. أشجار الزيتون المقتَلَعَة. الحقول المحروقة. عُدَّ. عُدَّ. عُدَّا!

صوتها يضغط، يضغط على جسده. عظامه تتكسَّر. رئتاه تنسحقا ن.

صار طُحْلُباً.

فجأة، وَجَدَ صخرة.

احتضنَها. حَكَّ نفسه بالصخرة. ضَرَبَهَا بقَدَمَيْه. حاول كلَّ شيء

لإزالة المجسَّات عن جسمه. انكشط جِلْده. آثار الماصَّات على قَدَمَيْه عميقة حتَّى الدم. إمَّا هو أو الوحش. أريك يُفضِّل الموت مسلوخاً حَيَّاً على أن يَدَعَ الوحش يلتهمه. انفكَّت المجسَّات الواحد تلو الآخر. حلَّقت أشلاؤها لِلحظة قبل أن يحملَها النهر.

دَفَعَ بنفسه نحو السطح. الضِّفَّة ليست بعيدة، لكن التَّيَّار أقوى منه، والضعف قد نال منه.

أريك!

الصوت آتٍ من فوق الماء. يظهر خيال أسود في وجه ضوء النهار. خيال امرأة.

أريك!

إنها هي. دائماً هي. ترمي له المرأة - الصوت حبلاً.

أمسك الحبل!

أريك يتشبَّث بالصخرة تشبُّثه بالحياة.

هل أنتَ مستعدٌّ للموت؟ أَفْلِتْ نفسَكَ، أريك. أَغْلِقْ عينَيْكَ، واتركْ نفسَكَ تنطلق.

احتضنِ الصخرة أقوى.

هل تريد أن تعرف مَنْ أنا؟ أَمْسِكِ الحبلَ!

رَمَتْ له الحبلَ مرَّة ثانية. أمسكَ أريك الحبلَ، وتركها تسحبه خلال التَّيَّارات.

كلَّما اقترب من الحافَّة، أصبح الماء أكثر دفئاً. خَفَّ تدفُّق الماء. الهواء كان ودوداً. والضوء حلواً. تقدَّم وتقدَّم، بجسده المنهَك مُتتبِّعاً الصوت. أَخرجَتْهُ أيادٍ من الماء. انهار على الأرض الرطبة.

أريك. السنوات تمرُّ. 2006 ... 2007 ... 2008 ... أريك! الوقت يجري. 2009 ... 2010 ... والدماء تسيل. هل تريد أن تموت؟

كلَّا. لا يريد أن يموت.

فجأة، رأى ظلَّاً. وسمع حَمْحَمَة حصان. رائحة مُطَمْئِنَة من شَعِيْر وعَرَق. جِلْد قد لوَّحتْهُ الشمس. عُرْفٌ مُشبَع بالغبار. روائح رَوْث مُصطبغ بلون ورد الخُزَامَى البرِّيّ البنفسجي. هذه روائح طفولته.

أريك مرفوع. خفيف بين الغيوم. إنه يعوم. يُهَدْهِدُهُ خبيب الحصان. لم يعد للنهر وجود. لم يعد للأزرق وجود. الرمال تحيط به من كلِّ جانب. صخور. والأُفُق الأحمر. والسماء الداكنة.

إنها تنتظركَ في الكهف.

صوت المرأة يرنُّ في الجنبات. صدى من فوقه صدى. يختلط بصوت قطرات الماء ... تق ... تق ... وبِطَقْطَقَة حوافر الحصان.

ثمَّ ... صمت.

الهواء رَطْب، والأرض معدنية. أعمدة بركانية. نحاس. برونز. روائح الصحراء.

يضع الحصان أريك، فيغطُّ في نوم عميق.

ليلي

كم أنتَ جميل عندما تنام، يا حبيبي. أعدُّ على أصابع يَدَيَّ الليالي التي تنام فيها بعُمق وهدوء إلى جانبي. تعتقد أنكَ بشرائِكَ مزرعة الجُمَّيْز ستجد السلام. أن قطعة الأرض الصغيرة المتروكة تلك في وسط الصحراء ستُذهِبُ عنكَ الأرق. وأن الحراثة ستُريحكَ من وَسَخِ المدينة. وتربية المواشي من سُمِّيَّة السياسة.

ليلي، سأُهديكِ أكبر لوحة في العالم، فانسجي لنا منها جنَّة!

تركتُ نفسي تجري مع الأحلام. حَدْس الرَّسَّام. ومواهب مصمِّمة الديكور. زرعت الورود وشقائق النعمان. حمراء وبيضاء وصفراء وبنفسجية. فوق سطح البيت، نصبتَ برج مراقبتكَ المشرف على كلِّ ما حولنا. الجندي ومنظاره المقرِّب. دائماً على أُهْبَة الاستعداد. أنتَ تعلن للكلِّ، للأرض، للتلال، للوديان، للجبال في البعيد:

ها أنا ذا، أيَّتها اليهوذا والسامرة!

خطوط الهجوم.

طُرُق يجب قَطْعها، وأخرى يجب شَقُّها.

الأعلام فوق القِمَم، بانتظار بناء المستوطنات.

هناك في الأعلى، آلاف الخطط تنبت في رأسكَ. تهبط السلالم

دفعة واحدة. تماماً على طريقتكَ في مناداتي: حبيبتي! متسرِّعاً دائماً، ومتحمِّساً. فأعرف أنكَ بصدد وَضْع قائمة جديدة.

كم من الدِّبلوماسيِّيْن والجنرالات والسِّياسيِّيْن استقبلْنا في المزرعة؟ وأنتَ تُداهِنُهُم، وتحرص على مَنْح كلٍّ منهم الفرصة للكلام والتنظير، وتضعهم ببيادق على خارطة مصيرنا؟ هذه الزيارات تُقرِفُني وتُسعِدُني، في الوقت نفسه.

رجال محترمون، حريصون على صورتهم. ديمقراطيون. دبلوماسيون. ثوريون. زعماء شعبيون. لكلٍّ لُصاقته وعلامته التَّجاريَّة. لا أحد يريد مصافحة أرييل شارون، جزّار بيروت. لكنهم سعداء للغاية بمشاركتنا طعامنا في جوٍّ من الحميمية، وبعيداً عن الأنظار. يأكلون المالح والحلو، وهم يُبرِّرون كلَّ ما يمنعهم من التصريح بولائهم عَلَنَاً. كم يُسلِّيني سماعهم، ويُقرِفني. لا سيَّما الزعماء العرب. أن تقيس عجزهم وتواطؤهم بما يكيلونه من إطراءات وسخط مزوَّر.

إنها مسرحية، يا عزيزتي. وأنت تحبين المسرح. اغتبطي إذن وكوني نايي السحري. ألست شريكتي، يا ليلي؟

هؤلاء الرجال، يا أريك. مَنْ هو مع شايه الإنكليزي. ومَنْ هو مع بيرته الأمريكية. ومَنْ هو مع كأسه من الفودكا الرُّوسيَّة. ومَنْ هو مع نبيذه الأوروبي. هؤلاء الرجال المتحضِّرون الذين يحكمون بالموت على عشرات ومئات الرجال والنساء والأطفال! مَنْ يَقتلون دون أن يطؤوا بأقدامهم أرض المعركة. يُلقُون الخطابات عن السلام تاركين لنا الغسيل الوسخ! إني لأستمتع أيَّما استمتاع بإطعامهم بيدي. بخروجي إلى خشبة المسرح، ولَعِبِ دور الجميلة، للوصول إلى مبتغانا.

كانوا يُعرُّونني بنظراتهم. العُزَّابُ منهم يتساءلون كيف استطاع رجل بشاعتكَ أن يُمسك بهذه الفراشة. والمتزوِّجون يحسدونكَ على الشهوة المشتعلة في عينَيْك.

أنا لستُ فراشة.

جمالي هو سلاحي. عطري، مادَّة مخدِّرة. والبيت هو شبكتي. كلُّ قطعة فيه، هي فخٌّ. الديكور كامل مكتمِل. الروائح، مُغرِية ومُشهِّية. زبدة. فوا غرا. فلفل أحمر. خشخاش. جوز البقان. سنبوسك بجبنة الكوارك الهنغارية وفطائر الجبنة المُحلَّاة. سنبوسك بالخوخ. كنتُ أُتخِمُهُم. بالطَّيِّبات والأطباق الغريبة والتَّخيُّلات الواهمة. كنتُ أسيطر عليهم بجمالي. أُجرِّدهم من أسلحتهم. بكلمة هنغارية من هنا، وكلمة ألمانية من هناك. نُكتة بالفرنسية. لحن بالإيطالية. كنتُ أُخاطبهم باللغة اليِدِيْشيَّة والعبرية والرُّوسيَّة. قبل أن يأتوا، يظنُّون أنهم سيدخلون بيت الدُّبِّ. دُبٌّ خطير بالتأكيد، إنما ضخم وأرعن.

لكنهم يجدون أنفسهم في بيتي!

أحياناً كنتُ أضحك في المطبخ. وفي أوقات أخرى، أستمع إليكَ، ويقشعرُّ بدني بأكمله. أنتَ تُهدِّد. تُفحِم. تُقنع. تعطي انطباعاً بحتمية الأمور. باللَّامفرِّ. فلا يساور أيّاً من الموجودين على الطاولة أيُّ شكٍّ. أنتَ تفعل ما يحلو لكَ. وهم معجبون بكَ ويكرهونكَ لأجل هذا.

أنتَ في عجلة كبيرة. تتوق للنزول إلى الحلبة والانقضاض. ولتذهب إلى الشيطان القوانين والتَّدرُّج في المقامات، ولأصحاب الأنا المجروحة! وهؤلاء الجبناء، إنهم يساندونكَ، ويتمنَّون سقوطكَ

في الوقت ذاته. ونحن نعرف هذا، أليس كذلك، يا عزيزي؟ ففي نظر هؤلاء، المفترَض أنهم مسؤولون كبار وحلفاء، أنتَ كلب الهجوم. أداة عملية. هذا كلُّ شيء.

لا يهمُّ، ليلي! سيظلُّون دائماً في حاجة إليَّ. أمَّا أنا، فلستُ بحاجة إلى حُبِّهم.

أنتَ تردُّ بسرعة أكثر من اللَّازم حتَّى إنكَ لتنسى أنكَ تكذب، أريك. حُبُّ الآخرين. احترامهم لكَ. إعجابهم. أنتَ مستعدٌّ لفعل المستحيل، للحصول على تلك الفاكهة بعيدة المنال.

فأنتَ تقوم بالحرب لأجل اليهود، لحُبِّكَ لذاتكَ.

وأنتَ تقوم بالحرب لأجل إسرائيل، لكي تثأر لنفسكَ من أولئكَ الحُسَّاد في كفر ملال. أولئك الجيران الذين لم يُصوِّتوا لكَ يوماً ما، أنتَ الرجل الوحيد الذي خرج من تلك الحفرة.

بالنسبة إليكَ، أنا أقوم بدور الدرع. أنا أحرس تلك الرغبة الخرقاء التي اسمها العاطفة. أُراقب الاستسلام منذُ أولى علامات الحُبِّ. أنا أدعم المحارب ضدَّ الطفل الذي لم يكبر فيكَ. أنا أدفعكَ نحو شخصيَّتكَ التي لا تُهزَم، نحو نسختكَ الأقوى فيكَ. أُساعدُكَ، كي تطرد مشاعر الندامة والتَّردُّد. أنا فقط مَنْ تفهم ماذا تعني الحرب، وماذا تتطلَّب. من قسوة وحنكة. ماذا تتكلَّف. من حُبٍّ وكراهية. ومن ليالٍ بيضاء.

ما إن يغادر الضيوف، حتَّى تتبلور في رأسكَ خطط الضربة المقبلة ضدَّ عدوِّكَ. ما إن يهبط الليل، حتَّى تغادرَنا الطمأنينة، ويبدأ القلق.

فتذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وأنفكَ في ملفَّاتكَ. تُدمدِمُ. تطلب رأيي في الموضوع الفلاني. وما إن تعتقد أني نمتُ، تختفي.

أنا أتظاهر بالنوم، يا حبيبي. أنتظر صرير الباب. خطواتكَ تبتعد. فأنهض بدوري لتحضير معركة الغد. مزرعة الجُمَّيْز ليست جنَّة عَدَن. إنها قلعة. وهي دائماً في حالة تأهُّب واستعداد، والسلاح مُلقَّم حتَّى في أيَّام الولائم.

كلُّ ليلة، أدخل إلى أعماق ذاتي. أبحث في الترسانة التي تحفظنا من الهجمات والأزمات والفضائح والمؤامرات. ومَنْ لديكَ غيري، حبيبتكَ ليلي، لعمل ذلك، يا أريك؟ التي تدافع عنكَ، وتؤازركَ عندما تكون وحدكَ في مواجهة الآخرين. التي تحوطكَ عندما ينهزمون أمامكَ. التي تقضي على أعدائكَ بالابتسامة. بالحِيَل والأحابيل. أنا أنتظر أن تغادر الغرفة حتَّى أحميَ أنفسنا من العاصفة.

عندما يشتكي الأصدقاء من حضوري الكثيف أو يتَّهمونني بتأجيج الصراعات بدل أن أسيطر على اندفاعاتكَ. عندما يُلمِّحون إلى أنني أُؤثِر عليكَ أكثر من اللَّازم، أنني أُشجِّع عنادكَ وتصلُّبكَ، أنني أُذكي ردَّات فعلِكَ المُفترِسة، أعلم أنني أفعل الصواب. وإن أصابكَ زُعَافُهُم، خفَّفتُ مِن سُمِّيَّتِهِم. دون أن يشعر بي أحد. على طريقتي. بينما أنتَ تراقب الأُفُق.

آه، ها أنتَ تنام عميقاً باستسلام. أكان لزاماً أن يتوقَّف قلبكَ حتَّى تنام أخيراً؟ نِمْ، يا حُبِّي szerelmem. أقولها لكَ بلغتي الهنغارية التي تستهويكَ للغاية.

استمتعْ بالصمت. دَعْ نفسكَ تتحلَّل. أن تعود للصحراء. أن يذوب الشحم. أن ينهشكَ الجوع من الداخل. الموت ليس بذلك السوء. مَنْ يدري ماذا سيبقى منكَ؟ ماذا ستصبح، إن تركتَ نفسكَ على هواها؟

أنا حجر.

إنه لأمر رائع أن أكون حجراً، يا حبيبي. فليس عليَّ الحركة بعد الآن. ولا أن أُظهر شيئاً ممَّا يعتمل بداخلي. أن أترك للزمن، للرمال، للرياح وللملح أن تصقلَني. دون أيَّة مقاومة منِّي. دون أيِّ رَدِّ فعل. أن أبقى باردة وأنا أتآكل. أن أكون ثِقَلاً. قاسيةً. راسخةً. أن أصطبغ بكلِّ الألوان، لونِ الصدأ ولونِ البرونز، والأخضرِ الرَّماديِّ للصخور المُؤَكْسَدَة. والموسيقى! صدى قطرات الندى على ظَهْري.

تق. تق. تق.

يتردَّد صدى الحياة المعدنية في عمق الموت. آه، لو بمقدوركَ تذوُّق الأمر، يا حبيبي ... أنا حبَّة مِلْح على لسان الأرض. أنا أذوبُ في فم جبل سيناء.

نعم، أريك، نحن في مغارة من مغارات جبل سيناء. المثلَّث اللعين. درَّة البحر المتوسِّط. لديكَ الكثير من الألقاب لهذه الصحراء التي تستهويكَ وتُرهِبُكَ. كم مرَّة أعلنتَ لقوَّاتكَ عبر الراديو: «لقد دخلْنا إفريقيا»؟ فَرِحٌ كفرح المستكشفين العجائز الذين يحلمون بالنساء الغريبات، قبل حدوث الأسوأ بقليل؟

انهزام. كمين. معجزة. مأساة.

أنا في حُلمكَ وفي كوابيسكَ، مثل سيناء.

عمَّ تبحث، يا حبيبي؟ عن الأمور التي أخفقتَ فيها؟ عن أمجادكَ؟ كارثة ميتلا سنة 56؟ مأساة سنة 73 التي تجنَّبناها؟ ما الفائدة من استرجاع مشاجراتكَ مع الصحراء، من استذكار كلِّ ذلك الكرِّ والفرِّ، من استجداء التهليل من الشعب والمستوطنين ورفاق السلاح؟ كلُّهم سواء، يا أريك. عقارب تحت الحجارة. وهم يخرجون من مخابئهم بعد كلِّ حملة. غيورون من نجاحاتكَ. بل ومن إخفاقاتكَ أيضاً.

لقد أصبحتُ حجراً لأجلكَ، أنتَ، يا عزيزي! أسحق العقارب، أسحقُهم حيثُ يعتقدون أنهم في أمان. حَيَّة أو ميّتة، أنا أرعاكَ. أتحدَّث إليكَ حتَّى إن لم تكن تصغي إليَّ. أقول لكَ كلَّ شيء، حتَّى إن لم تكن في وعيِكَ. هنا في سيناء، كلُّ شيء يتآكل إلَّا الحقيقة.

منذُ اليوم الأوَّل وهم يريدون رأسكَ. منذُ اليوم الأوَّل وهم يريدون إزاحتي. منذُ اليوم الأوَّل وهم يريدون تكدير حُبِّنا بحَشْر الدِّيْن وقوانينه في مناخيرنا.

فترى المستوطنين المنافقين يُوَسْوِسُون لك «وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا»! سِفْر اللَّاوِيِّيْن 18، 18. ثمَّ هم يعانقونَكَ في شوارع مستوطناتهم، نعم، فَلْنُسَمِّهم باسمهم، يا حبيبي. إنهم مستوطنون. ليس في هذه الصحراء سوانا أنا وأنتَ. ماذا كان سيحلُّ بهم لولاكَ، قلْ لي؟

يتمتَّعون بالمسكن والمأكل على حساب بقية السُّكَّان. يتكاثرون مثل الأرانب بينما يخاطر أولادنا بحيواتهم في الخدمة العسكرية، الإجبارية لنا، لكنْ، ليس بالنسبة إليهم! إنهم دجَّالون، يتجمَّلون بأقنعة الدِّيْن. شبابنا مَرمِيٌّ لساعات على نقاط التفتيش، يقوم بدور الجلَّاد

والبوَّاب وكلب الحراسة، لكي يستطيع شبابهم المستلقي في بيوت جديدة على المفتاح، تُوزَّع على آبائهم كما تُوزَّع قِطَع الحلوى، أن يلعبوا في قلاعهم المحصَّنة. ثمَّ ماذا؟ لا تزال لديهم الجرأة، هؤلاء الانتهازيون، للتنظير علينا، ثمَّ للتصويت ضدَّكَ بكلِّ سرور، ما إن تطالبهم بأقلِّ قَدْر من البراغماتية!

كلَّما كانت اللحية طويلة،كانت الكذبة أكبر!

هكذا كان يقول أبي. أبي حاخام، لكنه ليس ساذجاً أبداً. كان بوسعي أن أفعل مثل كلِّ أولاد اليهود المتشدِّدين. أن أرفع بطاقة الاستثناء الدِّينيِّ، وأُجنِّبَ نفسي الخدمة العسكرية. إنما لستُ أنا مَنْ يفعل هكذا أمور. قمتُ بواجبي. لأجل إسرائيل. لأجل عصابة العاقين هؤلاء!

لم يكن المسيح المنتظَر مَنْ أنشأ أولى المستوطنات بزَرْع معسكرات تدريب في قلب الأراضي التي سيطرْنا عليها. وليس المسيح مَنْ سمَّاها من جديد يهوذا والسامرة. ومؤكَّد أنه لم يكن المسيح مَنْ أعاد رسم الخرائط والحدود تحت غطاء من مشاريع البنى التَّحتيَّة والزراعة والتنمية الاجتماعية. كلُّ هذا لا أهمِّيَّة له. لا أحد نظيف كفايةً في عيونهم، وهم لا يستثنون أحداً من اتِّهاماتهم.

أنتَ، يرون أنكَ سياسيٌّ أكثر من اللَّازم.

أمَّا أنا ليلي، فأنا المرأة التي تُغويكَ.

المرأة التي دفعت أُختها غالي إلى حافَّة الانتحار، ثمَّ استولت على زوجها.

ليلي المستفزَّة.

تلك التي تشحنكَ ضدَّ الجميع.

ليلي، المُدَانة!

المرأة التي أدخلت المأساة إلى البيت، كما لو أن موت غور بعمر الحادية عشر، ابن أُختي الغالي والأثر الوحيد لنا من أُمِّه، قد حَدَثَ بسِحْرِ ساحر أو جاء ختاماً لزواجنا الآثم، وهذا أسوأ الاتِّهامات.

هل تعتقد، يا حبيبي، أنني لا أعلم كم تُعذِّبكَ هذه القيل والقال؟ كم ساعة من نومكَ يسرق منكَ هذا العالم المعادي؟ كلُّ ذرة احترام، نحن ننتزعها غصباً عن الصديق، وعن العدوِّ. لن يتخلَّصوا منكَ أبداً، كما لن يتخلَّصوا منِّي. ولن يكسروا الخاتم الذي يجمع بيننا. لستُ نادمة على حُبِّكَ. منذُ طفولتي، وحتَّى بعد مماتي.

قبل غالي، وبعد غالي.

قبل غور، وبعد غور.

الرياح تدعوني إلى النافذة في ليالي الأرق التي كانت سِمَة حيواتنا في المزرعة. ألمحكَ خارجاً من الإسطبل، وظلُّكَ الطويل تحت ضوء القمر. في ذلك الخيال الأسود، أرى قامة الجندي المكلوم.

وقتها، كنتَ صهري، زوج أُختي. فجأة، ها أنتَ تنتصب أمامي رجلاً. وأنا، أُخت زوجتكَ، أصبح امرأة لأوَّل مرَّة في عينَيْكَ. كائنان، روحان مجروحتان. وبيننا، كان الفتى غور، هدية أُختي غالي لنا. ابن أُختي الذي أصبح ابني من تلك اللحظة، وأنا أصبحت أُمَّه.

لكن ذلك لم يدمْ.

ككلِّ شيء في هذا البلد، الزمن سراب. لم يسبق قطُّ أن طالبتْ أرضٌ بهذا القَدْر من الخلود، ولم يحدث قطُّ أن كانت الأبدية زائلة بهذه السرعة. بالكاد تعافَيْنا من موت أُختي غالي، حتَّى انتزع الموت منَّا ابنها غور. لماذا هذه القسوة؟ أنتَ تطرح هذا السؤال على نفسكَ في تلك الليالي حين يزوركَ طيف غور وغالي، وتُواسي نفسكَ بالحديث إلى الخيول. هكذا تعيش حِدادَكَ.

كم كان يُحبُّ الخيول، صغيرنا غور! كم بدا سعيداً حين دخل الإسطبل في نَهلال، وكانت فَرَس رمادية جميلة، تنتظره هدية عيد ميلاده التاسع! في أيِّ سنة كان ذلك، يا حبيبي؟ لم يعدْ للوقت إيقاع أو شكل في هذا الكهف. من المؤسف أنكَ لستَ مستيقظاً؛ لكُنتَ عددتَ لي التواريخَ والأيَّامَ والسَّاعاتِ، كلَّ مناسبةٍ وكلَّ حَدَثٍ وكلَّ وقتٍ.

لديكَ حسُّ التاريخ، وأنتَ مُدرِكٌ لدوركَ في هذا التاريخ. كلُّ تلك الأحداث المسجَّلة بعناية ودقَّة في دفتر يومياتكَ. مراسلاتكَ التي تحتفظ بها، وتُصنِّفها بدقَّة وهَوَس. غريب ميل الإنسان إلى إهمال الذكريات الفرحة بينما المآسي منقوشة للأبد في ذاكرتنا.

عمر غور تسع سنوات، نحن، إذنْ، في عام، عام ... 1965. نعم، هو ذاك. أنتَ لواء ومدير التدريب العسكري. كنَّا نستمتع بالحياة، بالحُبِّ الخالي من العثرات بعد فقدان غالي، منعزلون في هذه الشُّقَّة الصغيرة وسط أقدم موشاف في البلد. بعد سنوات وهم يستبعدونكَ، ها أنتَ أخيراً تأخذ مكانكَ الصحيح في الجيش.

سنُنشئ العائلة من جديد. العلاقة تتطوَّر بيني وبين غور. وتَعَلَّقْنا بعضنا بعضاً يكبر. إنه يعيش الطفولة التي لم يكن لكَ فيها حقٌّ قطٌّ. محاطاً بحُبِّنا وحُبِّ رفاقه. وقتها كان جيراننا في الموشاف يكنُّون لنا الاحترام والتقدير. حتَّى إن كان لا يزال ضميركَ مُثقَل بسبب الأربعين جندياً الذين فقدتهم في ممرِّ ميتلا، فأنتَ تقول لنفسكَ: لم يموتوا في كمين. لم أُضَحِّ بهم لأجل لا شيء. لم يموتوا على يد المصريِّينْ. لقد ماتوا لأجل البلد. وبكلِّ الأحوال، سَقَطَ من جانب الأعداء أكثر من مئتَي شخص تحت رصاص رشَّاشاتنا. وبالتالي، نحن الرابحون، وفق علْم رياضيات القَتْل!

نعم... 1965... 1966... سنوات الاستغراق في نوم عميق. التعب اللذيذ. صباحات السعادة المعطَّرة بروائح أوراق الورد المجفَّفة. النزهات مع الأطفال في التلال. الاستراحة بعد معارك النهار.

سنة الانتصارات والفتوحات. رغم ثوران الفلسطينيِّينْ، ومقاومتهم. رغم رَفْضهم الخضوع. رغم عنادهم. إسرائيل. إسرائيل أكثر فخراً وأكثر كبرياء من أيِّ وقت مضى. لا شيء يمنعنا من النوم، لا الشباب الذين قُتلوا وهم تحت إمرتكَ في وادي سيناء القاتل هذا، ولا المَدَنِيُّون العرب الذين راحوا في حملاتكَ القَمْعِيَّة.

كان ذلك قبل أن ينهارَ كلُّ شيء.

النوم واحد من تلك الأشياء التي لا نشعر بقيمتها إلَّا بعد فوات الأوان. عندما يهجرنا. عندما تفجِّر طلقةٌ رأسَ غور، وتتبعثر الأحلام كما تتبعثر أنفاسه. لم يعد لِلَّيل معنى، لم نعد نعرف طَعْم النوم أو السلام بعد 1967. عندما استولت إسرائيل على الضِّفَّة الغربية،

وبدأت هذه الأخيرة تأخذ بثأرها، صارت ليالينا كلُّها أرقاً فوقه أرقٌ حتَّى لم يتبقَّ سوى قطار الساعات الذي لا نهاية له هذا. دون إيقاع، ودون تنهيدة نَدَم.

أريك، أريك؟ لم أعد أسمع صوت نومكَ. ألَا زلتَ تتنفَّس؟ أريك، لا تتركْني. غور لن يعود. إنه بعيد جدَّاً عنَّا الآن. أبعد من الموت. مع أُمِّه. وليس بوسعكَ أو بوسعي الانضمام إليهما. نورهم أمر طارئ في حيواتنا نحن المحاربين. ورحيلهم سيكون أمراً طارئاً أيضاً.

منطق الحياة بسيط للغاية عندما نفهمه ونُنصت إليه. غالي قُتلت في الطريق إلى القُدْس، في سيَّارة الأوستن مارتن ذات المِقوَد على الطرف اليمين التي أهديتَها إيَّاها. وغور قَتَلَهُ تذكارٌ من الأراضي المستوطَنة. بندقية صيد قديمة، عمرها مئة عام، اشتريتَها من أحد القروِيِّيْن في الضِّفَّة الغربية. كيف يمكن للهدايا أن تكون قاتلة بهذا القَدْر؟

بندقية لم يَمَسَسْها أحد منذُ بداية القرن، مَحشوَّة فقط في سبطانة الإطلاق. لعبة رائعة تليق بفتى، ترعرع في كَنَفِ أبيه العسكري. كانت لعبة حتَّى صباح ذلك اليوم حين وقعت في يد صديقه. فَتَيَان يلهوان بلعبة الحرب، كما يليق بابنَي محاربَيْن مثاليَّيْن.

فجأة دوَّى صوت البندقية.

صرخة رهيبة.

صرخة مصيبة قد وقعت.

خرجت الرصاصة التي لم يكن أحد يعلم بوجودها داخل سبطانة

البندقية، وقضت على غور، كما لو أنها كانت تنتظر الوقت الأقسى لمكافأتنا. كنتَ تتحدَّث في التلفون، وكنتُ أقوم بالمشتريات لأجل عيد روش هاشانا ... رأس السنة سيكون يوماً للحِدَاد حتَّى آخر العمر.

ظلَّ تاريخ البندقية يطاردكَ لأشهر طويلة. مَنْ كان يملكها؟ مَنْ لقَّمها منذُ خمسين سنة؟ صيَّاد أم فلَّاح أم ثائر، لم يقبل الهزيمة قطُّ؟ هل كان يعلم أن تلك الرصاصة ستقتل ابن بلدوزر فلسطين؟ جزَّار بيروت؟ ملك إسرائيل؟

هل هي ثأر المفقودين والقرى التي أُبيدَت أم ثأر البيوت التي صارت رُكاماً أم أشجار الزيتون التي اقتلعتَها؟

هل هي نكتة سمجة من نكات الفلسطينيِّيْن الحاقدين؟ هل سَحَرُوا الأشياء؟ هل لعنوا الأرض؟ هل ستكون عدوَّة له على مَرِّ الزمن، هذه الأرض؟

كدتَ أن تجنَّ بسبب ذلك.

أنا التي لم أُصَلِّ بحياتي، كنتُ أتلو صلواتي أمام شقائق النعمان. كنتُ أرجوها أن تشفيكَ في كلِّ ليلة حينما تذهب لرؤية الخيول. كنتَ تطرح عليها الأسئلة التي لم تكن تجرؤ أن تطرحها عليَّ، وبالتأكيد ليس على نفسكَ، أنتَ مَنْ يخاف جدَّاً من الأسئلة. لا أدري ماذا تتحدَّثون، أيَّ كلام يدور بين الحصان والرجل. تنطلق مسرعاً فوق ظهر حصانكَ، كما كنتَ تفعل مع غور. تختفي لساعات وراء التلال الصَّخريَّة. وعندما تعود ونخلد للفراش، تلتصق بجسدي، وتمُسك بخُصْلَة من شَعْري بين أصابعكَ. فإن شددتَ بالخطأ شَعْرة، تعتذر،

وتضمُّني أكثر. خُصْلَات شَعْري تُهدهِدُكَ حتَّى تنام، لكن النوم لا يطول، بل يهرب مع بزوغ الفجر، بعد ساعة أو ساعَتَيْن كحَدٍّ أقصى. تقفز من السرير، شاكراً النهار لبزوغه أخيراً، وتخليصكَ من الأشباح.

ها أنا ذا شبح أيضاً، وحيدة في الكهف. الوحيدة التي تتتبع رحلتكَ. السنوات تمرُّ. جاءت فيرا، ثمَّ ذَهَبَت. كادت أن تحتفظ بكَ في غابتها. كادت أن تقتلكَ، وها أنا هنا دائماً.

أنا لستُ فيرا، يا حبيبي. لكنْ، عندما تنظر إليَّ، إنما أراها هي في عينَيْكَ. وأنا لستُ غالي أيضاً. أحياناً أنتَ تبحث عنها فيَّ. فلنُوضِّح الأمر بشكل قاطع؛ أنا لستُ لا امرأة طفولتكَ ولا امرأة مراهقتكَ. لم أكن هنا في البداية. لكنني أمضيتُ شبابي في مقارعة تاريخ النساء اللواتي سبقنَني. لستُ الأولى في حياتكَ. وربَّما لهذا السبب لم أبقَ حتَّى النهاية. حياتي فُسْحَة بين فصلَيْن. تنهيدة. جملة اعتراضية داخل قوسَيْن من حياتكَ. لقد حشرتُ نفسي داخل قصَّة امرأة فاتنة أخرى، سَحَرَتْكَ منذُ اللقاء الأوَّل.

حكايتي تبدأ سنة 1947.

عمري عشر سنوات. لا زلتُ في براشوف Braşov، الصُّغْرَى في العائلة. فندق أبي الصغير أصبح ذكرى حزينة منذُ زمن بعيد. وقد ولَّى عهد التَّزلُّج على الثلج في جبال ترانسيلفانيا. كما ولَّى عهد السُّيَّاح، وقد ضُمَّ ميراثنا الهنغاري إلى رومانيا، كما ضُمَّت قريتنا.

عندما كبرتُ، اتَّهموني أنني قاسية، وأنني لستُ متعاطفة مع الفلسطينيِّيْن، ومع كلِّ ما فقدوه. كنتُ لا أزال طفلة حين فهمتُ ثمن الحرب ونتائجها.

الحدود تتحرَّك. اليوم أنتَ جزء من الإمبراطورية الهنغارية. تنشب حرب عالمية، فتجد نفسكَ مواطناً في بلد جديد. نحن الهنغاريون منذُ الأزل، أصبحنا رومانيِّيْن! القرى تنتقل من يدٍ ليَد. والشعوب من انتماء لانتماء. إنها لعبة. ومَنْ يربحون يُسمُّون البلادِ والقارَّاتِ كيفما شاؤوا.

بعد الحرب العالمية الثانية، أتْقَنَّا اللعبة. لم نعد لا هنغاريِّيْن ولا رومانيِّيْن، أصبحنا نُشير لأنفسنا بصفة يهود، وبمِلْء الفم! هاجر أفراد عائلتي تباعاً إلى فلسطين. وقمْنا بدورنا بإعادة تسمية الأرض، وصادرْنا القرى من أصحابها.

باردة؟

قاسية؟

تلك من صفات الحقيقة والقوَّة؛ لا مكان للحنان بينهما.

في البلد الجديد، تعرَّفتَ إلى أُختي التي لحقتْ بإخوتي وأخواتي. غالي تسكن في موسنسون Mosenson، النُّزُل المجاور لحقل أبيكَ. كانت تكتب لي عن الحياة هناك وعن المهاجرين الآخرين. وكلَّما حدَّثتْني أكثر، استعجلتُ القدوم. من بين إخوتي، أولغا ويافا وإليعازر وإسحق، غالي هي الوحيدة التي لا تعاملني كطفلة. كانت تُخبرني عن الفتى الرُّوسيِّ الذي يسقي أشجار البرتقال. تكتب لي كما لو أننا متساويتان في العمر. تروي لي مغامراتكم العاطفية واللقاءات حول البئر. عن الشَّرْخ الذي أحْدَثْتَهُ في سياج مدرستها حتَّى تتمكَّن من الخروج لِلِقائكَ. كنتُ أتخيَّلكما، من رومانيا، وأنتُما تلهوان وتتلاطفان بين البساتين، مثل عصافير الكناري التي تغرِّد على حافَّة نافذتي.

عمرُكَ تسعة عشر، وهي ستَّة عشر. جميلة جدَّاً. قد وَهَبَهَا الله نوراً وابتسامة طفولية، وقد زادها شَعْرها المجعِّد الأشقر القصير جمالاً. قالت لي إنكَ تُحبُّ أن تشبكَ أصابعكَ في خُصْلَات شَعْرها المجعِّد.

غالي، يا غاليتي ... شَعْركِ يلتهمُني!

هل عادةُ عَبَثِكَ بشَعْري تأتي من لحظات الحُبِّ الأولى تلك؟

غالي تتعذَّب كثيراً عندما تغيب. في تلك الأوقات العصيبة التي سبقت ولادة إسرائيل، كنتَ تذهب في مهمَّات سرِّيَّة مع الهاغاناه. كانت تكتب لي كم يُتعبها مَيلُكَ للقتال. عن المتعة التي تجدها في العمليات الانتقامية ضدَّ العرب. عن حاجتكَ إلى الثأر. ومع ذلك ...

أنتَ وُلِدْتَ في فلسطين. وعندما وُلِدْتَ سنة 1928، لم يكن لإسرائيل وجود. إذنْ، أنتَ فلسطيني! يا لها من فكرة! ... أن تعيش وتترعرع فلسطينياً يهودياً. أن تعمل كالسَّامريِّيْن، سكَّان كريات لوزة، المنغلقين على أنفسهم في وديان الضِّفَّة الغربية، غير بعيد عن نابلس. مَنْ يرفضون الاختيار بين الإيمان والانتماء.

بل هناك ما هو أفضل: أن تعيش مثل فلَّاح عادي.

دون أن تُسمِّي نفسكَ أو أن تُعيدَ تسميتها.

دون أن تُسمِّي أو تُعيدَ تسمية الأرض أو الشعب.

ما الذي أقوله؟! اعذرْني، يا حبيبي. لستُ أعلم من أين تأتيني هذه الأفكار. منذُ أن أصبحتُ حجراً والوقت يمرُّ ببطء شديد.

قطرات الماء تحفر فيَّ ثقوباً، وتملؤها بقصص أخرى، بأصوات أخرى. مع مرور السنوات، يتداخل الجسد مع الأرض، وتلتحم العروق بالصخر. تماهيتُ مع الأرض، واصطبغ جِلْدِي الهنغاري باللون الطِّينيِّ للصلصال والحجارة الجِيْرِيَّة ذات الألف عام. أنا أسمع صوت أصحاب الأرض.

يُطلقون علينا اسم الرُّوَّاد. رُوَّاد ماذا بالضبط؟ يميل الإنسان بطبيعته للاعتقاد أنه سيِّد قَدَره. فيتقدَّم على رُقْعَة الشطرنج بزَهْو الملوك والملكات. فيرا فهمت الأمر، وكذلك غالي. فهمنَ أننا لسنا سوى بيادق في لعبة الآلهة. هل هذا ما يدفع أُختي للخضوع للعلاج النَّفْسِيِّ، وبالتالي إلى الموت؟ ليتَني كنتُ بعقلها في شبابي. لكنني، بالطبع، لم أكن كذلك.

كنتُ أردُّ على رسائل غالي بأجوبة مُستفِزَّة. لكنني لم أرسلْها قطُّ، كنتُ أرميها دائماً في نهاية المطاف. قلقها عليكَ كان يصيبني بالإحباط. يحبُّها رجل مِقدَام، مستعدٌّ لإشعال حرب لأجلها وهي تتشكَّى! كانت تسرد مغامراتكَ مضيفةً عليها هواجسها ومخاوفها. كانت قراءتي لمغامراتكَ تُولِّد فيَّ مشاعر غريبة من الإثارة والرغبة والحنين ... إنه ألم اللذيذ. تظاهرتُ طويلاً باللَّامبالاة، لأُخفي أمراً واحداً، هو أنني أحببتُكَ حتَّى قبل أن ألتقيَكَ.

غالي، بنعومتها ورقَّتها. ذلك المخلوق الهشُّ الذي يفطر لكَ قلبكَ، أيقظتْ فيكَ مشاعر التعاطف والتفكير بالغير. هي الوحيدة التي كان بوسعها أن تفرض عليكَ التَّوقُّف لبعض الوقت، مهما كانت تلك البُرْهَات عابرة أو قصيرة. كنتُ أكرهها أحياناً، فقط لأجل ذلك.

غالي كانت النور في مواجهة ظلامكَ. تملأ العالم براءة، وتجرِّد أغلظ العقول من سلاحها بحضن واحد منها. أنتَ الفتى مُحبُّ الشجار، المكروه، الميليشياوي اللّامنضبط. وهي الملاك الذي يداوي جراحكَ، ويواسي وحدتكَ.

في الأشهر التي سبقت حرب 48، كنتُما طوال الوقت مع بعضكما بعضاً. تتخيَّلان منذئذ منزلكما، وتزرعان الحدائق حوله. أنتَ تريد متابعة دراستكَ في الهندسة الزِّراعيَّة، ويا لفرحة أبيكَ بالخبر! بينما اختارتْ هي التمريض. أُمُّكَ فيرا مفتونة بها، وليس في ذلك عجب، رغم أنكما أخفيتُما علاقتكما، وتزوَّجتُما من دون علْم أهاليكما، بين دورَتَيْن من دورات الخدمة العسكرية. كيف يمكن رَفْض هكذا عروس شابَّة، تسير على خُطى والدتكَ؟ إنها تتَّجه لدراسة الطِّبِّ، وفي هذا ما يكفي للقبول بها. حتَّى إن كانت غالي، في الواقع، لن تدخل أبداً غرفة عمليات. فهي ممرِّضة نَفْسِيَّة، تمُسك بيدِ المصابين، وتهمس لهم بكلمات لمواساتهم. وربمَّا قامت، من وقتٍ لآخر، بتغيير أنبوبة الغاز. مَنْ بوسعه منافستها على تلك المكانة؟

سنة 1953، تزوَّجتُما.

سنة 1956، وُلِدَ غور.

خلال تلك الفترة، هاجرتُ بدوري إلى فلسطين. بقيْنا معاً لفترة معيَّنة. أجمل حقبة في حياتي، وأكثرها إيلاماً أيضاً. عشتُ بالقرب منكم، أرعى ابن أُختي، آكل معكم، أساعد غالي في البيت ...

كم أنتَ جميل، يا حبيبي أريك! وكم هو جميل ظلُّكَ في الليل،

ذلك الظِّلُّ الذي يستخفُّ بما يُحدِثُهُ مرور السنوات من خراب وترهُّل. في عمر الثلاثين، كنتَ على صورة بلدكَ. وقتها كنتَ نحيلاً، ورحتَ تطوف هنا وهناك بثقة وتشوُّق قائد ناشئ، ينتظر قَدَرَهُ. غير مبالٍ بما تدوس عليه. لم تعد تتحمَّل التقنين في حصص الطعام ومراقبة الأُفُق. أنتَ هائج هيجان أحصنة السباق قبل فَتْح البوَّابات. وعندما تُدوِّي صافرة الانطلاق، فلا شيء بوسعه أن يُوقِفَكَ. لقد رأيتُ كلَّ شيء عن الطبيعة الغريبة والسخيفة للبشر. فَرَاسَتي تكتشف دواخل كلِّ الناس. وأنتَ أجمل كتاب مفتوح، وأكثرها فتنة.

أراقبكما ليلاً نهاراً، إلى أن يصبح الألم فوق تحمُّلي، فأهرب إلى شُقَّتي، وأدفن نفسي في الرسم. وعندما تخونني الفرشاة، ويتدفَّق كلُّ ما في داخلي من كآبة وحزن ألواناً قاتمة مُوحِشة، أُمسِكُ بمنظاركَ المقرِّب، الذي سرقتُهُ من بيتكم، وأخرج. أستلقي فوق إحدى التلال، وأحلم بكَ، وأنا أمسح دموعي. الشيء الوحيد الذي يواسيني هي أسراب الطيور في السماء، وهذا المنظار الذي له لديكَ معزَّة كبيرة، ألصقه بعينَيَّ، كما هو في أغلب الأوقات، ملتصق بعينَيْكَ. أستسلم لتلك الهوايات التي تمنحني الحُرِّيَّة في تعداد كلِّ لقاء عَرَضِيّ معكَ، أيّ صباح الخير، أيّ كلمة حلوة. انفجارات صغيرة تهزُّني عندما تمدحني أو تطري عليَّ بأمر ما. فإن حالفني الحظُّ، وطبعتَ قبلة على خَدِّي، أعضُّ على شَفَتَيَّ من الداخل، لأُخفي اضطرابي.

ياه، كم أنا مثيرة للشفقة! وكم يقتلني أن يُشفِق عليَّ أحد! كيف بوسعي تخمين أن تعلُّقي بكَ ستكون له كلُّ هذه العواقب أم أننا كنَّا دائماً نعلم ذلك، لكننا لم نكن نرغب الاعتراف به؟ لم يمرّ يوم واحد منذُ قدومي من رومانيا، يوم واحد بدونكَ في هذا المكان

السِّرِّيِّ الذي أرعاه منذُ طفولتي. هذا المكان الذي أبدو فيه شقراء مثل أُختي. رقيقة وبريئة.**مكتبة سُر مَن قرأ**

أقبل بكلِّ شيء إلَّا أن أكون الأُخت الصغيرة السمراء. أريد أن أكون أنا الأميرة في الحكاية. أكره هذا الثعلب المكَّار الذي يبتسم لي في المرآة. لا أريد أن أكون المرأة الذَّكيَّة. وإني لأحقد على القَدَر الذي مَنَحني هذا الفم المتعطِّش لِلقُبلات، ولغالي أُختي شَفَتَيْن عُذْرِيَّتَيْن. أنجذب إليكَ انجذاب عبَّاد الشمس نحو قرص الشمس. وإني لأشتهيكَ حتَّى قبل أن أعرف كلمة رغبة. صفعات إخوتي لي لكَسْر هذه النظرات الوقحة. عتابات غالي عندما تمسكني أتأمَّل نفسي بإعجاب في المرآة. لا شيء من هذا يمكنه تغيير واقع أنني جميلة أيضاً. وأجمل من أُختي. جمال جامح. وقح. يُخيف الرجال. جمالي بعيد كلَّ البُعْد عن جمال أُختي الخَزَفِي.

الخزفُ ينكسر بسهولة. يجب أن يبقى دائماً داخل صندوق مزجَّج، وأنتَ تتأمَّله من وراء حجاب. ليس أنا! فقد كَسَتْني الحياة طبقة أكثر قساوة وأكثر خشونةً. أنا مصنوعة من الخشب والأعشاب. وبوسع الرجال عمل كلِّ شيء منِّي، وفعل أيِّ شيء معي. وإني لأحقد عليكَ لاستسلامكَ مثل الكثيرين غيركَ لتلك الرِّقَّة التي يتأمَّلها الناس من بعيد، ويتعاملون معها بحَذَر. لأنكَ تحُبُّ أُختي. ألَا ترى ما هو واضح جَلِيٌّ، بالنسبة إليَّ، أنكَ أقوى من أن تكون رَجُلها، وهي أضعف من أن تستحقَّكَ؟!

أريدكَ أن تنحتَني بين ذراعَيْكَ. أَحْرِقْنِي. اصقلْنِي. احفِرْ من جسدي حوضاً. اسبَحْ فيَّ! إني لأنتظر يوماً، ينكسر فيه إناء الخزف. وسينكسر. وستُدرك عاجلاً أو آجلاً خطأكَ.

الحروب في هذه البلاد لا تكاد تنتهي. والميليشيا تتحوَّل إلى جيش رهيب. والبحث عن متطوِّعين جدد جارٍ في كلِّ مكان. وعندما يتعلَّق الأمر بالقتل، فأهلاً وسهلاً بالجميع، رجالاً ونساءً. لَبَّيتُ دعوة القوَّات المسلَّحة. عملتُ رسَّامة في الشرطة، قسم الهوية الجنائية، قبل أن أنتقل إلى إدارة المخابرات.

هل خطر ببالي احتمال أن يتمَّ تعييني في كتيبتكَ؟ ربَّما نعم، وربَّما لا. فالحَدُّ الفاصل بين الرغبة والمكْر دقيق للغاية. غالي لم ترد لي أن أنخرط في الجيش قطُّ، تماماً مثل أَبَوَيَّ. وعندما نَمَى إلى سَمْعها ما أنويه، أَمطرتْني بالنصائح حول الموهبة التي أنا بصدد إهدارها. هي مَنْ كان يصمِّم على أن أدرس الفنون. وهي مَنْ شجَّعتْني على متابعة التصميم الدَّاخليِّ، وحتَّى علْم الطيور.

كانت تصيح بي:

أنتِ أجمل من أن تكوني محاربة. حُبُّكِ للجمال لا يستوي مع امتهان الحرب. ماذا عن حُبِّكَ للموسيقى، للمتاحف، للطبيعة؟!

هل كانت تتحدَّث عنِّي أم عن نفسها؟ هل تعتب عليَّ لأنني أُحبُّ الجمال أم أنها تحسدني على ذلك؟ إنها تمضي حياتها بجانب رجال ونساء، كسرتْهم الأمراض العقلية، تداوي تلك المخلوقات التي خانتْها الطبيعة. يبدو لي أن غضب أُختي سببه إهمالي ما يحيط بي من أشياء رائعة أم هل تغار من الوقت الذي سأمضيه معكَ وأنا أشاركَكَ أكثر شيء يستهويكَ في هذه الحياة بعد الزراعة: القتال؟ لو كنتُ مكانها، لكان الجواب، نعم ...

كلُّ ما أذكره هو شعور عارم بالسعادة، شعور أنني أصبحتُ كُلِّي

قلب، وأنني، على عكس بقية المظلِّيِّينْ تحت إمرتكَ، سأرتفع نحو النجوم، إن قفزتُ من الطائرة. أخيراً حصلتُ عليكَ كُلَّكَ لي وحدي. الجيش لنا نحن فقط، هنا حيثُ تشعر بالحنان الذي حرمكَ منه أبواكَ. لقد أصبحتُ جزءاً من ذلك العناق الكبير.

إن فكرة أن بوسعنا العثور على الدفء والطمأنينة بين قَتَلَة حقيقيِّينْ لتثير اشمئزاز أُختي. ولكنْ، ما أدراها هي حقّاً؟ فالكراهية هي ما يجمع الناس ضدَّ الناس، قبل الحُبِّ. ضعوا بندقية في يد النساء والرجال، وسيصبحون متساوين تحت مظلّة الموت.

ماذا تعرف عن مذاق العنف اللذيذ بعدما تكون قد تخيَّلتَ أكبر عدد ممكن من الأموات من طرف عدوِّكَ وطَعْم دمه؟ ماذا تعرف عن نداء السلاح الذي لا يُقاوَم؟ الدَّبَّابات تصيح. تستدعيك آمرةً بالدخول في بطونها. بأن تُحرِّرها من قنابلها. الرَّشَّاشات تهزُّكَ ليلاً. باردة. مرتعشة. تترجَّاكَ أن تُفرِغَها من رصاصاتها. أن تمنَحَها الحياة. أن تجعل النار تتدفَّق في سبطاناتها. ما إن يصبح الموت في متناول يدكَ، فليس لشيء في العالم من قيمة سوى الرغبة في نشره أكثر وأكثر. أن ترمي الرُّمَّانة أبعد ما تستطيع، ثمَّ تحصد الأرواح.

دخلتُ عالمكَ كما لو أنني خُلِقْتُ لأكونَ جزءاً من هذا العالم. دخلتُ حيثُ لا تستطيع غالي أن تلحق بكَ. هنا حيثُ لا فرق أبداً بين أن تزرع أشجار الكليمنتين، وأن تزرع الألغام. لا تَعارض بين الفعلَيْنْ. التحاقي بإدارة المخابرات، فتح لي الباب إلى عوالمكَ الغامضة. نوع آخر من الحميمية. لم أعد أدري أين تنتهي أسرار الدولة، وأين تبدأ أسرار القلب.

في البداية، كنتَ حذراً، بل حتَّى فظّاً. لهجتكَ معي أمام الجنود الآخرين كانت أقسى. وكان يُذهلني تغيُّر سلوكك بسرعة ما إن نُصبح بمفردنا. أنتَ محارب صريح، لكنكَ لم تكن ممثِّلاً جيِّداً قطُّ.

آه، من مجاملات أوري الصغيرة! ... كم كنتَ تثور عندما كان هذا الصَّحَفِيُّ الشَّابُّ الواثق من نفسه أكثر من اللَّازم بعض الشيء ينظر إليَّ بازدراء في قيادة الأركان. أعترف لكَ، يا حبيبي، أنْ حَدَثَ مرَّة أو مرَّتَيْن أنني دفعتُهُ لفعل ذلك فقط لإثارتكَ ورغبة في رؤية ردَّة فعلكَ. وسرعان ما حذَّره بقية الجنود:

أوري، من الأفضل لكَ أن تبقى بعيداً عن أُخت زوجة القائد!

لكنه نجح مع ذلك، في سرقتكَ منِّي، أليس كذلك؟ وعليَّ القبول بمشاركتكَ معه ومع كلِّ البلاد.

مسكين أوري، لقد قَتَلَهُ مرضكَ. ومات بعد أقلّ من سنة من إصابتكَ بالسكتة، مثلما يفعل الأزواج العجائز.

في القاعدة العسكرية، كنَّا نعتقد أننا نتصرَّف دون أن نلفت الأنظار، أنا وأنتَ. أعمَيْنا أعيننا عن لَمْز القادة الآخرين وتعليقاتهم المفخَّخة. وأصْمَمْنَا آذاننا عن الوشوشات من حولنا. كانوا، احتراماً لكَ، يمثِّلون دور النعامة بينما الجميع يعلم، يا حبيبي، أننا نُحبُّ بعضنا حتَّى قبل أن نعترف نحن بذلك لأنفسنا. بقيْنا أشهراً عديدة نحاول تجنُّب المقدَّر، ثمَّ، فجأة وَقَعَ ما كان مقدَّراً له أن يقع.

الصحراء.

الحرب.

الكارثة.

ليست مصادفة، عزيزي أريك، أن نكون هنا في هذا الكهف في سيناء، تحيط بنا هذه الجبال. كم مرَّة كادت سيناء أن تخطفكَ منِّي؟ ومع ذلك، ماذا كان سيحلُّ بنا لولا كارثة ممرِّ ميتلا؟

سنة 1956، كانت سنة مؤلمة، إلى أن جاء يوم 31 تشرين الأوَّل القاتل، حينما أخبركم الأطبَّاء، أنتَ وغالي، أنكما لن تصبحا أَبَوَيْن أبداً. بدأتُ أتخيُّلنا معاً. بل تخيَّلتُ غالي وهي تطلب منكَ الانفصال. فالتضحية من طبعها. ومَنْ أنا لكي أمنعَها من أن تكون هي؟ كنتُ أرانا نتقدَّم، أنتَ القائد العامّ للجيش، وربَّما وزيراً للدفاع، لمَ لا، وأنا سأصعد على مهل هَرَمَ الرُّتب في جهاز المخابرات؟!

بعد ثلاث سنوات زواج، بدأ بطن غالي ينتفخ. فانهار ما بنيتُهُ من أحلام دفعة واحدة. ولولا الفنُّ والطيور، لَفَقَدْتُ صوابي، وجُننتُ تماماً. في الليل، كنتُ أستمع لموزارت للتمويه على اضطرابي. وقبل الفجر والانطلاق إلى قيادة الأركان في تلِّ نوف، كنتُ أمضي بعض الوقت في مراقبة عصافير الزرزور بالمنظار المقرِّب الذي سرقتُهُ منكَ. الحرب في السويس تلوح في الأُفُق. الإنكليز ينصبون فخَّاً للمصريِّيْن، ونحن الطُّعْم. أنا لا أخاف بداية الهجوم، بل نهايته. إنها حرب الفرصة الأخيرة. وأنا أعمل جاهدة على تحمُّل مسؤولية فهرسة وتصنيف الصور التي يرسلها لنا عيوننا وجواسيسنا على الأرض. لأجلكَ، يا قائدي، وأكسجيني، وسبب وجودي، سأنكش الصحراء شبراً شبراً. ألسنا شركاء؟ جنديان في الصراع نفسه؟ ننظر في الاتِّجاه نفسه! معي، ليس عليكَ أن تبرِّر أيَّ شيء أو تفسِّر أيَّ شيء.

الموت هو الموت. والحرب حرب.

وإن كنَّا نريد النصر، فعلينا الانقضاض بأنيابنا.

إن كنَّا نريد الأرض، فعلينا اقتلاع أشجار الفاكهة مع الأعشاب الضَّارَّة.

الأسود تلتهم صغارها.

الخنازير تدوس فوق كلِّ شيء في طريقها.

الأقوياء فقط يعيشون.

هذه الرؤيا للحياة تثير غضب غالي. كانت تُصرُّ على أن تجد معنى لوجود مرضاها النَّفْسِيِّيْن. هي تؤمن بالخطابات الطوباوية لعرَّابينا الصهاينة، لكنها ترفض أن تنظر إلى ما يجب فعلُهُ باسم هذه الطوباوية. وترفض الاعتراف بدورها في ذلك ومسؤوليتها. فهل ستفهم ذلك في النهاية، ثمَّ تخونها الشجاعة لإكمال الطريق معكَ؟ هل أكون امرأة سيِّئة جدَّاً إن فكَّرتُ بهذا؟

الحرب تقترب، ومعها يقترب الموت. أنا مستعدَّة لأن أقتل كلَّ العرب في الدنيا لأجل أن أبقى إلى جانبكَ. سأتبعكَ، يا حبيبي، حتَّى أبواب الجحيم. حتَّى أبواب الجحيم، سأتبعكَ.

أسمعكَ تشخر. جيِّد، يا عزيزي، جيِّد. نِمْ. هناك أشياء لا يمكن أن نقبلها إلَّا ونحن مخدَّرون. سريع. متوقِّد. عديم الصبر. هكذا أنتَ في مواجهة قلقِكَ. فكرة القلق في حَدِّ ذاتها تثير غضبكَ. فكنتَ تُكرِّر دون توقُّف:

القلقُ تَرَفٌ.

أنا أتحدَّث عنكَ، لكنْ، لنكن صريحَيْن، أنا مثلكَ. كان عليَّ أن أمرض حتَّى نخفِّف قليلاً من زخمنا، وحتَّى نواجه مخاوفنا. عندما تفوَّه الطبيب بكلمة «سرطان»، رمقتَهُ بنظرة حادَّة كما لو أنه خائن للوطن. لم تتركْهُ حتَّى أن يُكمِل التشخيص. أيّ نوع من السرطان؟ في أيِّ مكان الكتلة؟ درجة تقدُّمه؟ مدى تهديده لحياتي؟ هل ثمَّة أمل؟ لا أمل؟ غير مؤكَّد؟ كلُّ هذا لا يعني لكَ شيئاً.

نحن في الشتاء. شباط 1999 كان بارداً بشكل خاصٍّ. بالكاد بدأتْ آخر سنة في الألفية الثانية. وفكرة ألَّا أكون هنا للاحتفال بالعام 2000 تبدو لكَ أمراً، لا يمكن تصوُّره. شَرْحُ الطبيب ينزلق فوقكَ، كما ينزلق الماء فوق سطح مقاوِم للبَلَل. أنتَ تنتظر الحلَّ، أن يقول لكَ هكذا سنفعل. أنتَ تنتظر سماع الكلمات الوحيدة التي تهمُّكَ: سرطان في الرِّئَتَيْن، لا شيء يدعو للقلق بشكل خاصٍّ، يكفي أن ...

الجمل التي تبحث عنها لا تأتي. والطبيب الذي يخشى ردَّة فعل أكثر رجل حقود في إسرائيل، ينصحنا بمراجعة مُختصٍّ في نيويورك. ذهبْنا إلى الولايات المتَّحدة، مثل أولئك المهاجرين الأوائل الذين كانوا يحلمون بالعالم الجديد. هناك حيثُ تبدأ الحياة، والمعجزات تسقط من السماء.

خلال كلِّ الرحلة، كنتَ تتذمَّر من يهود اليوم حاملي الشهادات الذين لم يعيشوا معجزة البلد. هؤلاء الأطبَّاء المدلَّلون الذين يعيشون حياة مريحة أكثر من اللَّازم. لم يعودوا يبذلون أدنى جهد. لم يعودوا يؤمنون بالمستحيل. ويرضون بما هي عليه الأمور! وها أنتَ تبدأ بوضع قائمة مبادرات للألفية الإسرائيلية الجديدة. وقلتَ معلِناً:

سيكون لهذا الأولوية القصوى في الكنيست!

سلسلة طويلة من الإجراءات لعلاج حال الارتخاء التي تزعجكَ. هذا الخمول والاستهتار لدى المنتصرين الذي يدمِّر الإمبراطوريات. ذلك الخنوع الذي يحوِّل أمراً عادياً مثل سرطان الرئة إلى عقبة، لا يمكن تجاوزها.

عندما كرَّر مختصُّ الأورام الأمريكي التشخيصَ ذاته، ونَصَحَنا بذلك الأسلوب المتعاطف الذي لامس حَدَّ الشفقة بمتابعة العلاج في إسرائيل، ظللتَ ساكتاً. لم تُسعفْكَ الكلمات. لم يُسعفْكَ أيُّ شيء. حتَّى الغضب. أخيراً، وجد أرييل شارون ندَّاً له.

خمَّنْتُ منذُ زمن أنني سأموت بالسرطان. حتَّى قبل أن نهبط في نيويورك، كنتُ أعلم، يا حبيبي، أنني سأترككَ، إنما لم تكن لديَّ الشجاعة للاعتراف بذلك. فكرة أن أموت قبلكَ تُريحني. ألَّا أُضطرَّ لحضور مراسم دفنكَ. أن أعيش بعدَكَ بمفردي مثل أُمِّكَ. أن أُعيدَ رَسْم حياتي بدونكَ. أن أسأل نفسي مَنْ أنا، ومَنْ أكون لو لم أُحبّكَ.

ليس عليَّ بعد الآن أن أتصارع مع خيالات غالي وغور. أن أتصارع ضدَّ صداقة أوري وإسراركما بعضكما لبعض كرفيقَي سلاح. ضدَّ هؤلاء الجنود الشباب الذين يؤلِّهونكَ. ضدَّ غَيْرتي من كلِّ مَنْ يُحبُّكَ.

أنا أغار حتَّى من الذين يكرهونكَ! فالكراهية ليست سوى شكل آخر من الحُبِّ. أغار من شكوككَ وعدم اليقين لديكَ: فقط الحاضر والمستقبل موجودان. زراعة الأرض تعني قَلْبها رأساً على عقب. فلا بدَّ إذنْ، أن نقتلع من الجذور كلَّ ما يجب أن يُقتلَع. لا شيء يمكن أن نندم عليه.

في ليلة رأس السنة، شبَّت النيران في بيتنا الذي في المزرعة. إنها الإشارة: كم بقي لي؟ شهر، شهران، ثلاثة أشهر؟ سأمضي في سبيلي رويداً رويداً مثل الألفية.

عشتُ كلَّ حياتي على زمن مستعار. زمن استعرتُهُ من أُختي. من ابن أُختي. من الجنود الذين قُتلوا تحت إمرتكَ. من الفلاَّحين الذين لم نكن نعرْ وجودهم أيَّ اهتمام، الذين مُسِحُوا من التاريخ دون أن يُباليَ بهم أحد. هل هو قَدَر جميع النساء أن يلتفتنَ للوراء، ويتأمَّلنَ البشاعة التي تتركها خطوات الرجال في مسيرتهم نحو التاريخ؟

في الأيَّام الأخيرة في المشفى، كنتُ أشعر بثِقَل نظرتكَ القلقة على جَفْنَيَّ المُتورِّمَيْن، تلك النظرة الثاقبة التي ترفض الالتفات خشية أن يباغتَها الموت. الحياة تتركني وأنتَ، أنتَ تُؤنِّبني.

يجب أن تصارعي ليلي. صَارِعي! صَارِعي! ماذا يعني سرطان الرئة بالنسبة إليكِ؟ لقد تجاوزتِ ما هو أسوأ منه بكثير! لقد خَلَقْنا وطناً جديداً معاً، أنا وأنتِ. ذلك الأمريكي المغفَّل تنبَّأ أنكَ لن تري الألفية الثانية وها نحن ذي! أصبحْنا في آذار، يا ليلي. آذار 2000. هل تدركين معنى هذا؟ هذا ليس وقت الاستسلام. منذُ متى تتقهقرين أمام الخصوم؟ قولي لي!

أنتَ تثور غضباً ما إن آتي على ذِكْر موتي القادم. أنتَ ترفض سماع رغباتي، فتردّ حتَّى قبل أن أُنهيَ جملتي ...

عندما ستتعافين، ستفعلين هذا بنفسكِ.

لكنني لم أتعافَ، يا حبيبي. لقد متُّ مثل أيِّ امرأة. وقمتَ أنتَ بزراعة شقائق النعمان على قبري فوق تلَّتنا في مزرعة الجُمَّيْز.

منذُ عشر سنوات وأنا أعيش مع الموت. وأنتظر. هنا، في هذا الكهف الأحمر الصَّخريِّ الكريستالي. أنتظر أن تفلتَ قبضتكَ أخيراً، لكي نكون مع بعض من جديد. في عالم الأحياء، إنه عام 2010. أنتَ نائم منذُ أربع سنوات، أريك. لقد تعبتُ من الانتظار. وقد توسَّلتُ إلى المرأة - الصوت أن تأتي بكَ إليَّ. حذَّرتْني بقولها:

قلَّة من الناس مَنْ يخرجون من نهر تأنيب الضمير أحياء.

ماذا لو تُحرِّر جسدكَ، أريك؟ ماذا لو أصبحتَ عَدَمَاً طواعية؟ ماذا لو أَعْتَقتَ نفسَكَ من عالم الرجال. من حروبهم. من رغباتهم. من عنفهم؟ ماذا لو تجرَّأتَ في الغَطْس في جهنَّم النساء؟ فهل ستعود إليَّ؟

لأجلكَ قصصتُ خُصْلَة من شَعْري. لأجلكَ، منحتُ جسدي للمرأة - الصوت. لأجلكَ، أصبحتُ حجراً في هذا الكهف. الماء الكلسي يقضمُني ويشذِّبني. أربع سنوات مرَّتْ على إصابتكَ. وقد تغيَّرتُ فيها، فلم أعد المرأة نفسها. لا أهمِّيَّة لذلك، المهمُّ أنني قد أوفيتُ بوعدي.

أعرفكَ مذعوراً. ضعيفاً. عارياً. مطعوناً في الظَّهْر. بدون منظاركِ المقرِّب لتحديد مواقع العدوِّ ليلاً. أعرفكَ مذعوراً، يا حبيبي. أنا، أيضاً، كنتُ كذلك. ولا زلتُ كذلك بعض الشيء ... اعذرْني، يا عزيزي، لأنني اقتلعتُكَ من نفسكَ.

لكي أراكَ مجدَّداً، عقدتُ عهداً مع الأشباح. فمنحت المرأة - الصوت ذاكرتي وذاكرة كلِّ النساء. ولكي تسمعَني، يا أريك، منحتُها

صوتي وصوت كلِّ النساء. ولكي تتمكَّن، يا عزيزي، من الاستراحة بالقرب من الصخور، منحتُها روحي. كان لديَّ الكثير والكثير من الأشياء لأقولها لكَ. لقد اختطفَني السرطان منكم. هل تبقى معي، إن بحتُ لكَ بأسراري أم ستُكمِل طريقكَ؟ هل ستتركني في هذا الكهف، أتآكل في سيناء؟

مهما كان قرارَكَ، فليس بالأمر المهمِّ، لا تهتمَّ، يا حبيبي. اِعْلَمْ أنني سأُحبُّكَ دائماً. هيَّا، اِسْتَيْقِظِ الآن، أريك حبيبي.

اِسْتَيْقِظْ.

أريك

شيء ما يداعب خَدَّهُ. هل انهار تحت قَدَمَي الموت؟ هل هو الموت مَنْ يداعبه هكذا؟ أريك يشدُّ على جَفْنَيْهِ. فتلتمع أشكال في الظلام. ملامح مألوفة. أجزاء من وجوه. شَعْر أسود معقوص. حواجب كثيفة. ذقن بيضاوية. أنف ضخم فوق شَفَتَيْن محدَّدَتَيْن. نظرة حادَّة مخفية وراء نظّارة شمسية كبيرة، كنظّارة بريجيت باردو.

ليلي!

هل يحلم؟ هل هذه يدها تداعب له وجهه أم هي خُصْلَة من شَعْرها؟ المهمُّ ألَّا يفتح عَيْنَيْه. وإلَّا انسلَّت ليلي من بين جَفْنَيْهِ، ولَمَا عاد بوسعه الاستمتاع بهذه النعومة على خَدِّه، أو الاندساس في حضن هذا الجسد، وهو يعرف الآن، بل هو متأكِّد أنه جسد زوجته الدافئ النائمة بلصقه. ذلك الجسد الذي طالما اشتهاه وطالما أَحَبَّهُ. وإن فَتَحَ عَيْنَيْه ولم تكن هي ليلي، فهذا يعني أنه وحده في العَتْمَة. وليس سوى الريح هي مَنْ يدغدغه. أو ربَّما كانت أنفاسه، وهذا احتمال أسوأ. ستكون النهاية. فما إن يرى الإنسان، يصبح من المستحيل عليه تخيُّل شيء آخر سوى ما تفرضه عليه عيناه.

النظر قاتل. يقتل دون تردُّد. يجعل من البشر ضواريَ. وتتزامن حركة هاتَيْن الكُرَتَيْن في مركز الوجه، للتحديق في فريستها بشكل

أفضل، فتقع في الفخِّ حتَّى قبل أن تمُسكَ بها أيدينا. عندما ننظر، يمُحَى كلُّ ما ليس هدفاً. يُسمُّونه بالإنكليزية Tunnel vision. الرؤية الأنبوبية. عندها، يلفُّ الضبابُ العالمَ. ولا يتبقَّى سوى كائنَيْن على وجه الأرض: المُفترِس والفريسة.

أريك يُبقي عَيْنَيْه دائماً مفتوحَتَيْن. إنه أسد. نمر. ضبع. حَدَقَتَاه في المكان نفسه، تنظران إلى الشيء نفسه. وجه واحد ووحيد. هو والذئاب والنسور. النظر يقتل. عَلِم هذه الحقيقة يوم تفحَّص الظلام للمرَّة الأولى بمنظاره المقرِّب اللَّيليِّ، والتقط الخيالات الحمراء المتحرِّكة غير المُدرِكة للخطر المُحدِق بها. راقبَها طوال الليل، أولئك الأعداء الذين خانتْهم حرارة أجسادهم، فهم يلمعون مثل الشُّعل في الظلام. إشارة منه، ويقوم جنوده بإردائهم. شَعَرَ وقتها بمتعة ما بعدها متعة. لن ينفصل عن منظاره المقرِّب أبداً. لن يُغلِق جَفْنَيْهِ أبداً بعد اليوم. وعندما فَقَدَ النظر في إحدى عَيْنَيْه، بسبب انفصال في الشَّبكيَّة، فعل المستحيل لإخفاء الأمر. خشية أن يقع في الفخِّ. أن يفاجِئَهُ صيَّاد آخر، يملك نظرة أثقب من نظرته.

حيوان مُفترِس، تربىَّ في بلد مُفترِس. فجعل ذلك مهنته. الجمال والحياة والموسيقى والروائح والنكهات، المساحات الملساء والمحدَّبة؛ ما هي إلَّا إغراءات خطيرة. مَرعَى تسرح فيه المواشي قبل ذَبْحها.

1952. كان أريك قائداً شابّاً، نَصَبَ كميناً لجنود أردنيِّيْن. بين حرب 48 التي فرضت إسرائيل كواقع، وحرب 67 التي ثبَّتت وجودها كقوَّة استعمارية، بمستوطناتها ورعاياها المستوطنين، كانت الحدود

لا تزال شبه مفتوحة. وبدأ الفلّاحون الفلسطينيون الذين أُخرجوا من أرضهم حركةَ مقاوَمة من البلدان المجاورة. جيران قلقون من نَهَم هذه «الدولة» الجديدة المتعطِّشة للفتوحات، وهم، من باب الشفقة أو الشعور بالمسؤولية أو الاستراتيجية السِّياسيَّة، يتركون الفلسطينيِّيْن يفعلون ما يريدون.

أريك كان يَحسد في سرِّه أولئك الفلسطينيِّيْن الذين يتسلَّلون إلى الكيبوتز الحدودية. وكلَّما حَسَدَهُم أكثر، نهشتْهُ ضرورة القضاء عليهم. مقاومتهم تنتشر وتتمدَّد. وغزواتهم التي لم تكن ذي بال - سرقة أبقار وحمير من المستوطنين - أصبحت أكثر كثافة. عمليات تخريب. حرائق. كمائن قاتلة أحياناً. راحوا، وقد قوَّت الهزيمةُ شوكتَهم، ينشرون الفوضى والخوف على طول الحدود. إنهم يثيرون غيظه. ضَرَبَهُم عدَّة مرَّات، لكنهم كالحشرات يرفضون الموت. هذه الحشرات تُزعِج الجميع. تُفسِد السهرات على الشرفات.

تلك الأرض التي اعتقدْنا أننا روَّضناها وطهَّرناها من الحيوانات والنباتات البرِّيَّة، لا تقوى أمام نبتات الأرض الأصلية، العنيدة التي تقرض العشب المعتنى به، والمشذَّب. تلك الحشرات مِلْكٌ لِلَّيل، والليل، مثله مثل الأرض، مِلْكٌ لها.

وقد فَهِمَ أريك هذا الأمر مبكِّراً، وعليه التَّحكُّم بالأرض، أن يضمَّها، لكي ينتزع من هؤلاء السُّكَّان الأصليِّيْن أصالَتَهُم. أن يسحب البساط من تحت أقدامهم. أن يقضم الأرض سنتمتراً بعد سنتمتر. أن يمسح آثارهم الأولى. إنه ليحسدَهم على تجذُّرهم اللعين هذا! تلك الهِبَة في أن يكونوا هم والأرض واحد. يحسدهم على الجرأة التي تُلهمهم

إيَّاها. ذلك الشعور بالانتماء. ذلك التَّعلُّق الذي لا يقبل الانتقال. تعلُّقهم بهذه الأرض دون سواها. هؤلاء الفلَّاحون الذين تحوَّلوا بين ليلة وضحاها إلى رجال عصابات وثوريِّيْن. بل إنه ليحسدَهم على نَعْتهم بالإرهابيِّيْن. يحسد فيهم أسطورتهم. خرافتهم. هؤلاء الصغار جدَّاً. الضعفاء جدَّاً! هو، أيضاً، يريد أن يكون إرهابياً. ليذوق تلك الجرأة التي لا يمتلكها سوى المهزومين.

مع ذلك، عليه، في هذا اليوم من عام 1956، الاكتفاء بمواجهة الأردنيِّيْن. أعداء من الدرجة الثانية. فريسة لن تُشبِعَ جوعه، لكنْ، لا أهمِّيَّة لذلك. سيستغلُّ الأمر لِصَقْل غرائزه كصيَاد. توجَّه نحو الأردن، بالقرب من جسر متهدِّم. حدَّد مخفر شرطة صغيراً جدَّاً على الضِّفَّة الأخرى، وبعض الخيالات. وضع سلاحه جانباً، ثمَّ أشار إليهم من بعيد طالباً لقاءهم. أخفى أريك نظرة النسر في عَيْنَيْه، وحنى ظَهْره وهو يخترع لهم حكاية سرقة أبقار من كيبوتز ماعوز حاييم. طلب مساعدتهم، كَمَنْ يطلب تعاوناً بين خصمَيْن في موضوع عادي، يسمح للطَّرَفَيْن باستعادة بعض الإنسانية وبعض التَّحضُّر. أن يقول كلَّ ما في نفسه: انظروا، أنا لستُ حيواناً. أنا لا أحارب طوعاً. أنا أنفِّذ أوامر رؤسائي.

في تلك البُرْهَة التي جمعتْهم عند أنقاض الجسر، كانوا جيراناً قبل كلِّ شيء، يتقاسمون النهر نفسه. كان أريك مُقنِعاً لدرجة أن رجال الشرطة الأردنيِّيْن، وهم أنفسهم كانوا فلَّاحين قبل أن يلتحقوا بالجيش، تعاطفوا معه فوراً. ومثل صيَّاد تنبَّه أن الطعم عَلِق في الصِّنَارَة، مَصَّ أريك شَفَتَيْه. الفرصة أكثر من جيِّدة. والحيلة سهلة، لدرجة البلاهة. إن السمكة ابتلعتْها، وقد جاءت إليه.

بحجَّة مناقشة مشكلة اللُّصوصيَّة والسرقة على طَرَفيَ الحدود، سَحَبَهُم إلى الجانب الإسرائيلي، حيثُ يمكنهم تبادل النكات والاستراتيجيات تحت شجرة أكاسيا كبيرة. لِلَحظة، لم يعودوا أعداء. ارتخت وضعياتهم المشدودة، وسَكَنَت نظراتهم المرتابة. والأجوبة التي كانت فيما مضى قصيرة وحذرة، ازدادت رويداً رويداً، وتوسَّعت. أصبح الحديث لطيفاً ووديّاً نوعاً ما. تقاسموا ما معهم من أشربة، وهم يتبادلون النصائح - كالفلّاحين - حول أفضل طريقة لتربية الماشية.

لطفاء، هؤلاء الرجال. وأريك يشعر بالحرج، لأنه يكذب عليهم. أَقْلَقَهُ هذا الشعور الوجداني، فأسرع بكَبْت قرون الاستشعار، تلك التي تلتقط متعة الشراب بين الأصحاب الذين جمعتْهم المصادفة، وتُولِّد القهقهات المتواطئة. تلك القرون التي تستنشق رائحة الرجال وعَرَقَهُم. التي تتشرَّب حرارة قبضة اليد الدبقة المُرَبِّتَة مُطَمْئِنَةً على الكتف، واليد المصافحة بشدَّة تأكيداً على الصداقة. عليه أن يُدمِّر كلَّ ما يثير في نفسه التعاطف مع هؤلاء الجنود.

فهو مُفترِس، ولا يحتاج إلَّا لنظره ولفريسَتَيْن، وقعتا في مَرمَى عَيْنَيْه. إنهما قطعتان ثمينتان في لعبة السلطة، وهو مصمِّم على كَسْبها. سيكونان فدية لقاء إطلاق سراح جنود إسرائيليِّيْن أخطؤوا، قبلها ببضعة أسابيع، وتسلَّلوا إلى مناطق السيطرة الأردنية، فقُبِضَ عليهم. بفضل نفاقه، وسذاجة رجال الشرطة الأردنيِّيْن، سيُثبت كفاءاته كرجل كوماندوز. ولن يشكِّكَ أحد بعدها بغرائزه كصيَّاد أبداً.

في هذا اليوم، تكشَّفت له حقيقة أخرى. حقيقة أن النظر يقتل. يقتل السمع. يقتل اللمس. يقتل الرائحة. يقتل التَّذوُّق. النظر سيكون

سلاحه وبوصلته. أريك يدفن أحلام طفولته، الواحد تلو الآخر. النعاس الحلو في أوقات الظهيرة الحارَّة. القيلولة في ظلِّ العربة بعد الحراثة. رائحة زوَّادة أُمِّه المريحة.

إنه مُفترِس. والحيوانات المُفترسة لا تُغلِق عيونها. لا تسمع غناء الزرزور. لا تعدُّ الفراشات. لا تتسلَّى بسماع طنين النحل فوق الأزهار. الحيوانات المُفترِسة لا تبحث، لا عن الحُبِّ، ولا عن الصداقة. لا عن الإنسانية، ولا عن الحضارة. الحيوانات المُفترِسة تستولي على كلِّ ذلك غصباً، كقرابين حقٍّ لها.

عندما كان مُراهِقاً، عانى من برودة أُمِّه فيرا، ومن كراهية الجيران. عندما شبَّ عوده، صار يضحك من الصَّبيِّ الذي كانه. فالحماقات لا تستحقُّ إلَّا الاحتقار! وأحزان الرجل المنهزم تلك ليس لها مكان في التاريخ. أريك رجل منتصر. رجل وُلِدَ، لكي يكتب التاريخ. ما إن يُمسك المنظار المقرِّب بين يَدَيْه، ما إن تنجح الحيلة على ضفَّة نهر الأردن، ما إن ينسى صمت رجال الشرطة الأردنيِّيْن المصعوقين في مواجهة بندقيته، ما إن يقتلع شجرة الأكاسيا ومَنْ يقومون بالاعتناء بالأكاسيا، سيَسكت كلُّ صوت همهمة فيه، ويتحوَّل لون الشمس إلى مجرَّد إضاءة على العدوِّ حتَّى يقوم بتقطيعه إِرْباً بشكل أفضل.

النظر قاتل خفي. محطية القَتَلَة. النظر يستولي على الجسد كالغُزاة. يحرمه من حواسِّه. من كثافته الجسدية. فيصبح مجرَّد ورقة. والعالم رسمة مسطَّحة. خريطة نطويها وننشرها. النظر يعيد رسم الخريطة كيفما يشاء. ويصبح غنيمة بمجرَّد وضع علامة X على موقع الهجوم التالي.

طوال حياته، أبقى أريك عَيْنَيْه مفتوحَتَيْن جيِّداً، فالعالم بأسره ملعب للبلدوزر. واجهات منازل بدون داخل. بدون سكّان. مجسَّمات للتحطيم. ولمَ لا؟ فالكواسر لا تتساءل عن كونها كواسر. في عمر الخامسة عشر، يوم التحق بصفوف ميليشيا الهاغانا، اتَّخذ قراره بأن يكون أكثر الكواسر نهماً ودموية!

عيناه دائماً مفتوحتان، باستثناء واحد.

عندما يكون مع ليلي. ليلي وخُصْلَة شَعْرها. ليلي وضحكتها. ليلي وعيناها الواضحتان لا لبس فيما تقولانه. ليلي التي لم تتركْهُ سوى مرَّة واحدة، يوم وفاتها. ليلي أتت تساعده في هذا الوقت العصيب القلق وهو مَرميّ ميتاً، غارقاً، مقتولاً على يد أُمِّه، وصوت المرأة - الساحرة لا ينفكُّ يطارده، يعتدي عليه. ليلي هي الوحيدة التي تعرف كيف تهدِّئ الوحش المُفترِس. هي مَنْ يواسيه بعد فقدان الأحباب، مع أنها حزنت وحَدَّت على موت أُختها وابن أُختها.

ليلي. أُخت الزوجة. الخالة. الخليلة. الزوجة. الأُمّ. الشريكة. اللَّبْوَة وسط الأسود.

بدينٌ، وتُحبُّه. سريع الغضب، وتُحبُّه. قاتل، ومع ذلك تُحبُّه. فقط مع ليلي، يُغلِق عَيْنَيْه. كما يفعل الآن.

شيء ما يداعب خَدَّهُ. كلَّا! ليس شيئاً ما. بل الشيء الوحيد الممكن: خُصْلَة من شَعْر زوجته المستلقية إلى جانبه، وقد غاب عنقها تحت شَعْرها الأسود اللَّامع. كان، وهو المَغرَم بالخرائط، يرسم تضاريس البلد بشَعْر ليلي الطويل، يخطُّ أنهاراً سوداء فوق الشراشف

البيضاء، ينثر قبلاته على الشَّعْر المسترسل، ليُحدِّد النقاط الحسَّاسة والمُدُن والمناطق.

الخُصْلَات المتمرِّدة على الجبهة هي الجليل.

الخُصْلَات المتماوجة على الصدغ اليمين هي البحر المتوسِّط.

تلك على الصدغ اليسار هي البحر الميت.

يشعر بالاحتكاك المؤنِس والحنون لخُصْلَات ليلي ... إنها تدعوه لدخول اللعبة.

خَمِّنْ من أين أنا آتية، أريك. من الشَّمال؟ هناك حيثُ تمُطر على جذوري، فيظهر بياضها ويتلاشى لون الصبغة حتَّى الزيارة التالية عند الكوافير؟ هل أنا آتية من الأصداغ؟ من سفح جبل الكرمل المواجه للبحر؟ هناك حيثُ تتكسَّر الأرض شرفاتٍ حجرية، صفَّاً فوق صفٍّ مثل طيَّات الخواصر؟ هل أنا «جليل» النساء، تاج النساء، «ناصرة» النساء، أم القلعة الشاهقة شهوق رغباتهنَّ الأكثر سرِّيَّة؟ هناك حيثُ تنزلق جباههنَّ المتجعِّدة تحت بحر من الشَّعْر الحريري المغسول، المسرَّح، المربوط والمعقود للخلف عقدةً صغيرة، كما لو أنه يريد جمع أولاد الشتات، الخُصْلَات المتمرِّدة في العالم، وإعادتها إلى المهد؟

وماذا لو أني آتية من نهايات شَعْر النساء؟ هناك حيثُ يَرْكُنَّ رؤوسهنَّ المتعبة على الوسائد الرَّثَّة فوق الكنبة، أو على سيراميك الحمَّام الدبق، أو باب خزانة الملابس أو المرآة التي لم يعدنَ يجرؤنَ على النظر إليها؟ هناك حيثُ تتحطَّم الخُصْلَات التي كانت تسافر

في ندى الصباح تحت ثِقَل الهموم والقلق، وآلام الشقيقة، والرؤوس المنحنية فوق البالوعة أو المرفوعة نحو السقف الوسخ لإبعاد العَرَق عن العيون؟ قُلْ لي من أين أنا آتية؟

من الجنوب! من رقبة حبيبتي ليلي، كان بودِّ أريك أن يجيب. من صحراء النقب في شَعْرها، من شقائق النعمان في مزرعة الجُمَّيْز، من مزرعتنا.

لكن الكلمات لا تخرج من فمه. لا يشعر بلسانه. وفمه يرفض أن يُفتَح. وها هو ينتظر، عاجزاً، جواباً من الخُصْلَة. ينتظر الابتسامة المُطمْئِنَّة. ينتظر أن تقول له: نعم، أنا من الجنوب. وقريباً سنلتقي من جديد. ستستيقظ، وستلفُّني بين أصابعكَ في السرير مع ليلي.

انتظرَ أريك، ثمَّ انتظرَ.

من الجنوب؟!

كلماتها تمزِّق الصمت.

أيّ جنوب، أريك؟ وماذا تعرف عن دواخل النساء، عن تجاويفهنَّ وأعماقهنَّ؟ نعم، أنا من الجنوب! وقعتُ من الضفائر المحترقة في بير السبع، التي جفَّت أطرافها حتَّى إن أسنان المشط لتتكسَّر عليها.

أنا الخُصْلَة التي نجت للنساء والأطفال في قبية، الذين تكدَّسوا في البيوت المزروعة متفجِّرات بأمر منكَ. كان الهلع كبيراً، فسكتوا، وجمدوا في أمكنتهم. ثمَّ ماتوا معاً جسداً واحداً بينما جنودكَ يراقبون ألسنة اللهب.

أنا من البحر الميت. من نساء الملح، نساء الغبار.

أنا من الأرض التي امتُصَّ ماؤها. امتُصَّ دمها. امتَصَّت نُسْغَها أشجارُ فاكهةٍ طفيليةٍ. أشجار فاكهة آلية مَحشوَّة بالمنتجات الكيميائية. أشجار فاكهة دخيلة، تمتصُّ دماء المياه الجوفية. تحقن نفسها في شرايين التلال المفتوحة والأنهار. وهناك تُفرِغ بذورَها المعدَّلة وراثياً في الحياة البرِّيَّة المحلِّيَّة، لتتمخَّض عن فاكهة وحشية، سيأكلها رجال متوحِّشون.

فاكهة استوائية في مناخ جافٍّ. أشجار لا يُروى عطشها أبداً. أشجار شرهة لمستوطنين أصحاب رؤية. يزرعون المستوطنات، كما يزرعون أشجار الأفوكادو. أشجار شرهة لرجال شرهين.

رجال أفوكادو. رجال جشعون. بطونهم بطون الغيلان. إنهم يرضعون من صدر هذه الأرض حتَّى لا يبقى منها سوى الجِلْد المتغضِّن. حتَّى تتعفَّن. حتَّى يُفرِغوها من عصارتها، من حليبها، من عسلها. إنهم يَزْدَرِدُوْن الحقول. يقضمون الهضاب الواحدة بعد الأخرى. يقطعون. يسحقون. يطحنون الأرض.

هناك حيثُ تغطِّي أشجار الأفوكادو الوديان، كانت تمتدُّ حقول القمح والشعير والسُّمسُم. سيقانها خُصْلَات شَعْر شقراء، تواجه السماء الزرقاء. أنا من تلك الحقول التي كانت تغذِّي فيما مضى قرى كاملة. أنا ابنة البذور التي كانوا يقايضونها في السوق مقابل كلِّ ما تشتهيه النَّفْس من أدوات وقِطَع أثاث. النساء كنَّ يهدينَها مقابل حرير للتطريز. شالات. سلَّات القشِّ. أوانٍ فخَّارية.

أنا كلُّ ما يتبقَّى من الغيوم التي كانت تغطِّي حقول البِطِّيخ بعد يوم صيفي طويل. اِقتلَعُوني من السنابل التي كانت ترقص مع الريح. قَطَعُوني من أعراف الأفراس التي كانت تلتهم الأرض بحوافرها، وتنشر لَقَاح أشجار السرو بذيولها.

أنا المرأة التي كانت تركض زمن الخيول البيضاء. أنا كلُّ ما يتبقَّى من أرض قد عُرِّيَت. اغتُصِبَت. أنا حنين الأجداد المذبوح المهان.

أنا لستُ خُصْلَة شَعْر.

أنا الحكاية التي لا يحكونها.

الصوت الذي تكبتُهُ داخلَكَ.

المرأة - الصوت.

النهر قد بَصَقَكَ. والصحراء أنقذتْكَ. الزمن يمرُّ. يتوقَّف. زمن الماء. وزمن الحجر. هذه هي حياتكَ. موتكَ. جسدكَ المريض.

أنا أرعاكَ وأُداويكَ. أسدُّ الثقب الذي تركتْهُ رصاصة أُمِّكَ. أُغطِّيكَ بشَعْري. بما احتفظت من كرامة. آه، لو بإمكاني أن أصبح طائراً جارحاً أنا أيضاً، يا أريك. أن أضع كلَّ ثقتي في نظري. أن ألتهمكَ بنظراتي. أن أمرَّ على كلِّ عضو في جسدكَ المثير للقَرَف والاشمئزاز. أن أغرز أسناني في هذه الكتلة من الجِلْد الكاوتشوكي. أن أسلخكَ من هذه الأرض كما تُسلَخ فروة الرأس!

أريك ينتفض.

يفتح عَيْنَيْه. الظلام دامس. يتحسَّس وجهه، جَفْنَيْهِ، يلمس بياض

عَيْنَيْه. إنهما مفتوحتان لا شكَّ. يفركهما. لا شيء. إنه أخرس، وفوق ذلك أعمى! أين هو؟ أين ليلي؟ جلعاد؟ أوري؟ هل هو في المشفى؟ في سريره؟ في الجحيم؟ هل هذا حُلم أم كابوس؟

يمرُّ تيَّار هوائي، يجعل شَعْر رقبته ينتصب، شَعْر فخذَيْه، شَعْر صدره، وعضوه. عضوه الذَّكريّ! بطنه يتأرجح في الهواء. إنه عارٍ. عارٍ! فكرة أن يراه الناس وجسده الذي أصبح مجرَّد بطن مهولة معروضة أمام أعدائه وذقنه المتساقط فوق رقبته وترهُّلاته على طول قامته المتأرجحة على كلاَّ الطَّرَفَيْن. على إِلْيَتَيْه. فوق قضيبه وخُصْيَتَيْه. فكرة أن يراه أحدهم بهذا الشكل، بدون دفاع. بدون عَيْنَيْه. سلاحه. بوصلته. فكرة لا يمكنه تحمُّلها.

راح يحرِّك ذراعَيْه حركات شديدة، ليغطِّي جسده. لكن عُريه كان أكبر. إنه وحيد. وحيد. وحيد في الظلام!

أريك ...

ذلك الصوت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أريك.

إنها في كلِّ مكان. هنا. هناك. في الأعلى.

تخرج من تحت الأرض. من الحجر. من كلِّ الجهات.

تخرج منه. تذوب فيه. تُعذِّبه. تطعنه.

أريك! أريك! أريك!

في كلِّ مرَّة يسمع فيها اسمه، تجتاحه الرغبة في التَّقيُّؤ. جسده يتشنَّج. الغثيان يكبِّله، يصرعه. يصعد إلى حَنْجَرَتِهِ. يحشو خَدَّيْه. شفتاه جافَّتان. أطبَقَ بيَدَيْه على فمه. لكن التَّيَّار قوي، أقوى منه. ينبجس القَيْءُ من مِنْخَرَيْه، من أُذنَيْه، ومن عَيْنَيْه. من بين أصابعه المطبقة على شَفَتَيْه. يسيل في خيوط لزجة فوق ذقنه، رقبته، صدره، حَلَمَتَيْه.

اتركْ نفسكَ، يا أريك. أفرِغْ نفسكَ من الجثث.

يريد أن يصيح: كلَّا كلَّا.

فتنفجر عوضاً عن ذلك دفعة ثانية من القَيْءِ المرِّ.

جسدكَ لم يعد مِلْكَكَ، يا أريك. لم يعد مِلْكَكَ منذُ زمن طويل. استسلم لغضبه.

كلَّا. هذا الجسد الذي كان يحميه. يحتلُّ كلَّ المكان. يستعمر الهواء. يقتحم الأبواب المغلَقة. هذا الجسد العملاق كما في الأساطير. الواثق. الطموح. المتعطِّش لكلِّ شيء. للطعام وللحياة. للسلطة وللأرض. للماء وللشجر. للسماء وللريح. هذا الجسد لن يخونه.

أريك يحاول تحديد معالم الفراغ، يبحث عن ليلي، عن وجهها. يناديها، فتجيبه قَرْقَرَة بطنه. موجة جديدة من المياه الآسنة آتية، شَعَرَ بحُرْقَتِها الواخزة تصعد من معدته إلى حَلْقه.

جسده يصرخ: حَرِّرْني. حَرِّرْني من هذا العذاب!

فجأة، تدفَّق سائل فاتر مخلوط بمادَّة لزجة. روائح كريهة لبول وأملاح. رِجْلاه تترنَّحان، ثمَّ تنهاران تحته. كما لو أنهما لم تعودا تعرفان كيف تسيران. كما لو أنه فَقَدَ أعضاءه، ولم يعد سوى كتلة، لا شكل لها.

زحف متخبِّطاً على أربع، محاوِلاً بجهد كبير ألَّا يتقيَّأ. يده تدوس على شيء كالبراز، والأخرى تبحث عن اتِّجاه. تحطُّ يدٌ بهدوء، إنما بعزم تحت إبطه، فيعضُّها كالكلب المتوحِّش، ثمَّ يهرب، يهرب نحو مصدر للحرارة، شيء أشبه بالنور في البعيد، في آخر السواد الدامس. يهرب، يهرب، ووراءه خيط من الشّخاخ. هل إن أكمل تقدُّمه سيقع من شاهق أم سيخرج من هذا الجحيم؟

فات الأوان. أمسكتْهُ اليد من عنقه. قَاتَلَ، لكي يهرب، قَاتَلَ ضدَّ ثِقَل هذا الجسد الخائن. ليلي! أين ليلي؟ لماذا تَرَكْتِني؟

انهضْ، أريك. أتريد ليلي؟ أنا ليلي.

مستسلماً، أَعْزَلَ ... ترك نفسه تنهار.

اِستَنِدْ على ذراعِي. سآخذُكَ إلى النبع.

الصوت يأخذه نحو النور، خطوة بعد خطوة، كانت ذراع مفتولة العضلات ترعى الحيوان الجريح، الذي فَقَدَ مخالبه. ذراع متينة، ثابتة. هل هذه ليلي التي تداعب له خَدَّه؟ الصوت اللَّاذع الذي يفكِّك قلعته حجراً حجراً؟ قالت لي إلى النبع. في داخليَّته، أريك يعلم أنها ليست ليلي. ليلي ما كانت إطلاقاً تتركه يتعذَّب بهذا الشكل. وماذا لو أنها حقّاً هي؟ ماذا لو أن الأمر كما كان يخشاه دائماً، أن كلَّ

العواطف في الدنيا ليست سوى أوهام؟ هل كان حُبُّها قُرباناً للحيوان المُفترِس؟ حبَّذا لو أن ليلي تقول له الحقيقة أخيراً، الآن هنا، في هذا المكان الأسود التائه المُتوِّه؟ هل تُحبُّه؟ هل تكرهه؟ هل أَحَبَّتْهُ يوماً ما؟ وماذا لو كانت هي هذه المرأة التي تعذِّبه، هذا الشيطانَ ذا الصوت المعسول؟ لماذا أصبحت رقيقة بهذا القَدْر فجأة؟

أسئلة .. أسئلة. هو مَنْ لا يلقي بالاً بالأسئلة، لا يعرف الشَّكَّ، لا يسمح بالارتياب، ولا يتعامل مع المآزق التي تفرض عليه اختيار واحد من اثنَيْن. فالأسئلة أمرٌ، لا طائل منه. والمآزق أمر فضفاض. الشكوك؟ هي مَضيَعة للوقت وللطاقة. وإنه ليحتقر تلك العقول التي يُرثى لها، الإِمَّعَات الذين يقتلُهُم التَّردُّد. أولئك المساكين الذين يُضيِّعون أعمارهم في تأمُّل الخيارات، في العناية بوزن الإيجابيات والسَّلبيَّات دون تأثير يُذكَر، اللَّهمَّ إلَّا على ضمائرهم الحَيَّة البائسة. تلك النفوس التي تتعامل مع الحياة كما يفعل الفلاسفة الباحثون عن المعنى اللَّانهائيِّ. هؤلاء يُريحهم سماع الأجوبة، لا سيَّما تلك التي تفضي إلى أسئلة أخرى.

لكن الحقيقة أن هذا البلد لم يقمْ على الأسئلة! وما كان ليكون لو أن الصهاينة تساءلوا عن أحقِّيَّة قضيتهم، وعن حقِّهم في الحصول على الأرض أو لو أنهم طلبوا الإذن في استيطان قِمَم التلال، وفي أن يملؤوا سفوح الوديان بالأشجار الدخيلة على البيئة المحلِّيَّة. هذا البلد مَبنيٌّ على الأجوبة والحلول الجريئة. بل البشعة حتَّى! سبعون عاماً من الحلول.

الأسئلة أمرٌ خطير. فهي تفرض التأويلات. الأسئلة تفتح الباب

للقَلَق والهَمِّ. وهذا أمرٌ قاتِلٌ وقتَ الحروب. وما العالم سوى ساحة حرب كبيرة. الأسئلة تكبح حركة التاريخ. إنها حوريات البحر التي تغنِّي، فتحرف القوَّات عن هدفها، تجعلها ترتعش، تخرق الأوامر الواضحة والجلية بالتَّردُّد والتَّفكُّر. يكفي أن يدير جندي حسَّاس ظَهْره للعدوِّ لحظة واحدة، قبل أن يتمكَّن رفاقه من مَنْعه. أن يتوقَّف ليستمع إلى ضميره. فلا تلبث أن تأتيه الضربة، لتجدَهُ مَرمِياً جثَّة هامدة على الأرض! وها هو أريل شارون نفسه يجفل لأوَّل مرَّة. وينزلق في هذا الرَّماديِّ غير المُحتمَل.

مَنْ هو؟ مَنْ هي؟ مَنْ يتحدَّث إليه؟ ما هو هذا الجسد اللَّاحم الذي يحمله منذُ عقود؟ هذا الجسد الشرهان؟ ماذا التهم وتبرَّز سوى أجوبة وحلول؟ حلول عملية. قابلة للتطبيق. بفضل القوَّة والسلاح. أجوبة وحلول لا تتطلَّب أيَّ سؤال. فشارون، المشغول جدَّاً في التفاخر بإنجازاته، لا يسأل أبداً إن كان الحلُّ حَلَّاً في حقيقة الأمر أو إن كان الجواب هو الجواب الصحيح.

كم ضحية لكلِّ انتصار؟ إنه يستهلك بقَدْر ما يستطيع جسده الاجترار. وها هو جسده، مُفرَغٌ، مُستهلَكٌ. مثل كيس نفايات.

سمع صوت صاحبته تُوشوش له:

انتبِهْ للحجر. ارفعْ قَدَمَكَ، يا أريك.

أطاع سعيداً بأن يتبع لمرَّة واحد في حياته صوتاً آخر غير صوته. يا له من شعور غريب، ذلك الانقياد!

قليلاً إلى اليمين.

تحت قَدَمَيْه، شَعَرَ بالأرض تتحوَّل من الوحلة إلى اليابسة، ومن اليابسة إلى أرض رملية، ثمَّ صار يمشي فوق الكثبان. الكثبان ترقص. تتفتَّت هَبَّات هَبَّات. الهَبَّات تدور، تتشابك بأوراق النخيل، النخيل يتخلَّى عن تمره، فيتساقط دون أن يُصدِر أيَّ ضجيج. سَكَتَ الصدى. والأرض المائجة تحته سَكَنَتْ، ولَانَتْ.

فتح أريك الأعمى يَدَهُ، وراح يتحسَّس المكان. بساط من ورود تحت أصابعه. بتلات متفتِّحة، كشفت مياسمها للنهار. تعرَّف على مَلمَس شقائق النعمان المخملي، الأزهار المفضَّلة لدى ليلي. هل هو ذاهب إلى قبرها؟ هو مَنْ كان يهاب الموت، ذاهب الآن لِلِقائه، وسيلجأ إلى حضنه بكلِّ سرور.

كم سنة أمضى في الغيبوبة؟ كم سنة أمضاها في هذا الجسد؟ كم سنة وهو يتحمَّل هذا العذاب؟ أهو الموت؟ فليكن. خُذني إليكَ، أيُّها الموت. أنقِذْني من هذا الكابوس. أسرعَ الخطى. فاستوقفتْهُ ذراع دليلته.

كلَّا، أريك. لن تموت. ليس بعد. هنا الزمن لا يمرُّ. هنا الزمن يجول، يتماوج، الزمن هنا حَلَزُوْنيٌّ.

تقدَّما، تحت حرارة ثقيلة، يكسرها من وقت لآخر هواء مُنعِش، يُذكِّره بعُريه، ويثير رائحة قَيئه وبوله. لو أنه فقط يجد جُحْرَاً ما، ويختبئ فيه. إنه عار وأعمى تحت رحمة هذه المرأة - الصوت، المرأة - الخُصْلَة التي تدَّعي أنها ليلي، حبيبته. كم بودِّه أن تكون فعلاً ليلي. أن تخلِّصه من عجزه. عاجز في مواجهة العار. في مواجهة الرِّقَّة المخلصة لهذا الصوت. رِجْلاه تترنَّحان. فتُمسكه الذراع بقوَّة أكبر.

بقي القليل، يا أريك. النبع قريب جدًّاً.

إنه يسمع صوت العصافير ووشوشة المياه ومشي الحيوانات التي جاءت تُطفِئ ظمأها. عرف فيها المها من حفيف قرونها بأشواك النباتات المائية. هل تأخذه إلى واحة؟

سأُعيدكَ إلى الحياة، أريك. إلى الذاكرة. إلى الزمن. هنا. ها قد وصلْنا.

قادتْهُ نحو صخرة. سطحُها أملس، شَعَرَ بنعومته تحت إليَتَيْه المتسلِّخَتَيْن. صخرة تحوطها غشاوة من الحرارة. أَجْلَسَتْهُ بالقرب من الماء.

هيَّا، بَلِّلْ رِجْلَيْكَ.

الماء ساخن. لَفَّهُ ضباب مخملي. كان الصوت يسانده بينما هو يغوص بهدوء. بعد القَدَمَيْن، الركبتان. بعد الرُّكبَتَيْن، الفخذان. بعد الفخذَيْن، عضوه، ثمَّ بطنه، ثمَّ صدره، ثمَّ ذراع، ثمَّ ذراع آخر. التَّيَّار يتكسَّر على كتلته البليدة، يلتفُّ حوله، ثمَّ يتجمَّع. جسده كجرح مفتوح. دخيل. عنصر طفيلي، يُشوِّش على جريان الـ... ماذا؟

تاريخه؟ ذاكرته؟ حياته؟ كلّ ما ارتكبه من أخطاء وفظائع؟ وماذا عن الناس التي أحبَّها؟ عن شهواته؟ نجاحاته؟ انتصاراته؟ ماذا عن المجد؟ أوليس هو بطل؟

أوري دان قال له ذلك. قال إنه ملك إسرائيل.

ليلي قالت له ذلك. قالت إنه أفضل الجميع.

أليس هو مُنقِذ الأُمَّة؟ أين ذَهَبَت يقينيَّاته؟

هيَّا - اِغْطِسْ.

بعد الذراعَيْن، الكتفان. بعد الكتفَيْن، الرقبة، ثمَّ الذقن، ثمَّ الفم والأنف. تحيط به فقاعات هوائية. تتفجَّر على جَفْنَيْهِ المُغلَقَيْن. شَعْره طار وسار مع الماء. لم تبقَ أيُّ مجسَّات، ولا دوَّامات عنيفة، ولا وحوش. بات خفيفاً. خفيفاً للغاية! وكم بودِّه أن يصبح جزءاً من هذا المشهد، حصاة في قَعْر النبع.

وضعت المرأة - الصوت يدها تحت إبطه من جديد، ورفعتْهُ.

شَعَرَ بالبرد.

لا تخشَ شيئاً، سأُدفِئُكَ.

اقتادتْهُ نحو الصخرة، فَتَقَوْقَعَ على نفسه، وأغلَقَ رجلَيْه على عُريه.

نما إليه صوت ضحكة لعوب. كم تشبه ضحكة ليلي!

لا تُتعِبْ نفسكَ، أريك. فأمامي، ستبقى دائماً عارياً.

شفتان فوق شَفَتَيْه. انزلقت كرة حريرية من لسان الغريبة داخل حَلْق أريك.

لطالما أخفيتُ صوتكَ داخلي. ها أنا أُعيد إليكَ صوتكَ. قلْ لي كلَّ ما تريد. اطرحْ عليَّ كلَّ الأسئلة. حاكِمْني إن أردتَ. اقتلْني إن لزم الأمر، فأنا لكَ. أنا دائماً لكَ.

أنتِ لستِ ليلي.

أصابتْهُ الدهشة لسماعه صوت نَفَسِهِ. أن يتلفَّظ بالكلمات بعد سنوات من الصمت.

أنا ليلي، وأنا فيرا. والكثير غيرهما من النساء داخلكَ. وعندما لا أكون أحداً، فأنا بكلِّ بساطة ... ريتا.

لقد عرفتُ الكثير ممَّنْ يدعون ريتا!

في بُحَّة صوته، آثار الرجل الذي كان.

ولا واحدة تُشبهني.

قولي لي منْ أنتِ. أَطلقِيني!

بداية قصَّتي ستكون نهاية قصَّتكَ. هل أنتَ مُستعدٌّ للموت، أريك؟

سنموت جميعاً، بأيِّ حال.

فلنمتْ، إذنْ. إليكَ حكايتي.

ريتا

وُلدت يوم وفاتي. جسد صغير مزرقّ على يَدَي امرأة، تُدعى حورية، القابلة.

حورية اسم عربي.

نعم، هو اسم عربي.

وأنتِ، هل أنتِ عربية؟

وأنتَ، هل أنتَ يهودي، يا أريك؟

سؤال غبي!

ماذا يعني أن تكون يهودياً؟

المعاناة.

هل عانيتَ؟

أنا أعاني الآن!

وماذا يعني أن تكون عربياً في هذا البلد؟

وما أدراني أنا؟ ماذا يعني أن تكون عربياً؟! ماذا يعني أن تكون خاسراً؟ فليقولوا لكِ هم، كيف يشعرون في هذا البلد؟!

يشعرون شعور حورية. كانت تفوح منها رائحة الحياة، حورية التي وُلد على يَدَيْها أطفال، ما كان لهم أن يعيشوا أبداً. وقد سقطتُ أنا من بطن أُمِّي ميِّتة. الجميع تركني فيما عداها. حورية كانت تمسِّد لي صدري. تُوشوش لي كلمات عربية. تقرص لي إليَتي. تُقبِّلني على شَفَتَيَّ المزرقَّتَيْن. فجأة، انسحق بلبل على النافذة، ففتحتُ فمي، وصرختُ.

صاحت جَدَّتي مُهلِّلة.

إنها حَيَّة!

خرجت حورية دون أن تنطق بكلمة. التقطت جسد العصفور الهامد المُلقَى على العشب، ووضعتْهُ بالقرب منِّي.

ريتا، أيُّها البلبل الصغير. ستطيرين عالياً، عالياً جدَّاً، إلى أن تسقطي من جديد. سيأتي أموات آخرون. وحيوات أخرى أيضاً. ستصعدين النهر حتَّى النبع، ستدوسين الوديان، تذرعين التلال، وستنشدين اسمكِ نداءً لكلِّ المَنفيِّيْن. ستكونين طيراً. حصاناً. قصيدة. ولن يتركك الموت بعدها أبداً. أنتِ الطفل الذي وُلد ميِّتاً لأرض وُلِدَت ميّتة.

انفجرت أُمِّي بالبكاء، وصلَّى أبي شكراً لله. استلمتْني جَدَّتي بقوَّة، وطَردت القابلة من البيت. أعتقد أن حورية قد استنفدت كلَّ المعجزات الممكنة. ومنذُ موتها وأنا تائهة بين الأموات. أحمل كلَّ الوجوه. وجوه مَنْ تقتلهم هذه البلاد ومَنْ تلدهم. ويوماً ما، سأستنفد أنا أيضاً المعجزات. وحدها حورية ستتعرَّف عليَّ. أنا ريتا. المرأة - الصوت. المرأة - البلبل. الطفلة التي وُلدت ميّتة، لأرض وُلدت ميّتة.

لا تُكرِّري هذه الجملة! كلُّ ولادة هي فعل عنيف. ولكي يُولَد هذا البلد، كان لا بدَّ للآخرين أن يموتوا.

تعالَ، إذنْ.

إلى أين تأخذينني؟

إلى ولادتي، وإلى عنفي.

لا تقطبْ حاجبَيْكَ، أريك. فأنا مثلكَ، ترعرعتُ في بيت مستوطنين. مثلكَ، كان إخوتي يشتغلون في الحراثة والبساتين. وأنا أعتني بالأبقار والماعز. مثلكَ، وضعوا في يدي سكِّيناً قبل أن أتوجَّه إلى السوق، حيثُ يختلط المزارعون العرب باليهود. مثلكَ، اعتقدتُ أن أشجار الزيتون تنبت من جهتنا من السياج. ثمَّ ذات يوم، فاجأتُ الأشجار وهي تسير على الطريق المغبرَّة الموازية لأرضنا في الموشاف. غابة من أشجار الزيتون تطفو فوق الأرض. جذورها ذات الألف قَدَم، وألف إصبع تختال جَذْلَى. كانت تمشي مَشْيَ النمل المتراصِّ، بالكاد تلمس الأرض. كأنها راقصات باليه في تناغمها بعضها مع بعض. أغصانها في الهواء. إلى أين تذهب؟ إلى حيثُ تختفي راقصات الباليه؟ على حافَّة خشبة المسرح خلف الستارة؟ في الظلام؟ أشجار الزيتون تطير سابحة. أوراقها الفضِّيَّة تدور حول نفسها، وتتناثر على الطريق. تختلط بالقرويِّيْن الراكبين في الشاحنات العسكرية. فتتداخل الأحذية والشالات بالأوراق والزيتون المسحوق. الزمن يمرُّ. والأشجار المقتلَعة من جذورها تختفي، ثمَّ ...

تظهر.

ما الذي يظهر، يا أريك؟

الغابة. على تخوم أرضنا في الموشاف. غابة من أشجار الزيتون. حتَّى ليُخيَّل إلينا أنها هنا منذُ الأزل. ها ها!

لمَ هذه الضحكة؟

ولمَ لا أضحك؟ أشجار تتنقل من مكان لآخر؟ تُقتَلَع دون أن تموت؟ تسافر من منطقة لأخرى في البلد؟ هذا أمر مبتَكَر! لقد علَّمتْني هذه الزيتونات المقتَلَعة من جذورها الخلاصة: كلُّ شيء يمكن أن يتحرَّك، حتَّى الأشجار. بوسعي تغيير محور الأرض لو أحببتِ!

بوسعكَ أن تُكذِّب أشجار الزيتون أيضاً لو أحببتَ.

وما أدراكِ أنتِ عن الموضوع؟ كلُّ شيء يتحرَّك في هذا البلد. الرجال والنساء والأشجار والقرى والشوارع والحدود والأسماء. حتَّى القرون. متحاذق مَنْ يدَّعي معرفة اتِّجاه الريح. وأنا تعلَّمتُ. تعلَّمتُ كيف أنقل الحدود من مكانها. كيف أُحوِّل الطُّرُق. كيف أجعلها تؤدِّي إلى حيثُ آمرها أن تؤدِّي. ألَّا يكون ثمَّة لا طريق ولا مخرج ولا اتِّجاه مختصر لا يؤدِّي إلى إسرائيل. شرق. غرب. شمال. جنوب. حَدِّقي في السماء. اِغْطِسِي في رحم البلاد. كلُّ شيء مِلْكي أنا. التاريخ وأطلال التاريخ يسيران على إيقاعي أنا!

كلُّ شيء يتحرَّك. ولا شيء يتحرَّك. لا الحياة ولا الموت. مَنْ يولدون قد ماتوا. ومَنْ يموتون لم يعرفوا الحياة قطُّ. كلُّ شيء متحرِّك. زَلِق.

لذلك نحن نحفر. نعضُّ في لحم المُدُن القديمة. نُعرِّي المعابد. نُجوِّف المناجم. نبتلع قِطَعَ المزهريات الفخَّاريَّة المعروضة في المتاحف. نُنقِّب لاستخراج تاريخ على قياسنا. نصنع حفرة سوداء كبيرة. جُرابٌ نضع فيه كلَّ الأكاذيب. نُبهِّرها، لنصنع منها معجزات. ثمَّ نَسْكَر بالمعجزات. نتقيَّأ معجزات، لكي نصنع بلد معجزات.

كلُّ شيء ينتهي حيثُ ابتدأ. كلُّ شيء يموت وهو يُولَد. أبسط الأشياء: الاستيقاظ صباحاً. الذهاب إلى السوق. حراثة الأرض. ولادة صبي أو بنت. كلُّ ذلك يبدو فجأة غريباً.

الاعتيادي هو ذلك الأمر النشاز الذي ندعوه حادثاً طارئاً. أمر يقطع مسيرة حيواتنا اليومية. الماء والحجارة والسهول والصحراء. حتَّى شقائق النعمان! أيُّها مبارك؟ وأيُّها ملعون؟ ليس هناك مجرَّد ماء ومجرَّد حجر أو سهل أو صحراء. ليس هناك شيء اسمه مجرَّد زهرة في هذا البلد المعجزة.

البسطاء وحدهم يؤمنون بوجود المعجزات. أمَّا أنا، فأرى ما يجب رؤيته. أنا لا أحيد بعينَيَّ. إذ لا بدَّ من كشَّاف، ليقود هذا القطيع من العميان. وعندما يريدون معجزات، أصنع لهم معجزات. بأصابعي الغليظة هذه، أخيط هذا البلد، وأعيد تفكيكه حتَّى يصبح كالقفَّاز في أيدينا. وإنهم ليحتقروني لأجل جهودي، ولأجل شجاعتي. وأنتِ، أنتِ تُعميننِي. تَشُلِّينني. تُحوِّلينني إلى مجرَّد جسد معاق. نَتِن. أَعيديها إليَّ. أعيدي إليَّ عينَيَّ، كما أعدتِ إليَّ نُطقي!

عيناكَ ليستا معي، يا أريك.

أعيدي إليَّ جسدي، إذنْ!

ليس معي هو الآخر.

أعيدي إليَّ حياتي!

لا أستطيع أن أعيدَ إليكَ ما ليس مِلْكَكَ. الحياة بدأت قبلَكَ، وستنتهي بعدَكَ بحقب طويلة.

صوت بَقْبَقَة مياه. يحتكُّ به خيال مُبلَّل. ريتا تمسك بيده في يدها. ثمَّ وضعتْها على ثَدْيَيْها.

ماذا تفعلين؟

سحب أريك يده مضطرباً. لكن ريتا أصرَّت على ما تفعله.

المسْهُ. سأعيركَ جسدي.

مرَّر يده على الجسد النَّديِّ. على انحناءات الأُنثى فيها. على وجهها.

هيَّا، انقشْ ملامحي في ذاكرتكَ. أعطني وجهاً في الظلام. سأكون مرآتكَ. هل عرفتَني، يا أريك؟

كلَّا.

مَنْ كُنْتَهُ قبل المعجزات؟ ماذا كنَّا سنكون لو كنَّا أناس عاديِّيْن؟ نعيش في بلد عادي. مع ناس عاديِّيْن. تاركين المعجزات والوعود في الخارج؟ أن نستمتع بمشاهدة الشجرة نفسها عند تقاطع الطُّرُق نفسه سنة بعد سنة؟

عادي. بدت الكلمة نشازاً في فم أريك. أنار شرخٌ جبينَهُ. تتلوَّى الكلمة داخل الشرخ مثل دودة. حياته ترشح على وجهه. هذا هو الموت، إذنْ؟ أن تنزف من الذاكرة حتَّى لا يتبقَّى شيء من نفسكَ؟ هل كان في يوم ما شخصاً عادياً؟

الدودة تقضم ثقباً داخل جارور، لا يملك مفتاحه. أعليه أن يموت حتَّى يستخرج ذلك المفتاح من تحت التراب؟ عندما يفكِّر في كلِّ

أولئك الفلسطينيِّيْن المَرمِيِّين في مخيَّمات حول البلد منذُ سبعين عاماً. وبمفاتيح منازلهم الصدئة المثيرة للشفقة التي يتوارثونها من جيل إلى جيل. مفاتيح عادية تسخر من كلِّ الخرائط. من الطُّرُقات، ومن المستوطنات. كلَّا. هو لم يكنْ في وقت من الأوقات شخصاً عادياً. والكلمة غير موجودة في قاموس مفرداته.

إنه يهوديٌّ، صِهْيُوْنِيٌّ، إسرائيليٌّ. ابن الشعب المضطَهَد. الشعب المختار. ابن المَنفَى. ابن الصعود. إنه مميَّز، ووريث تاريخ مميَّز.

يهوديٌّ. صِهْيُوْنِيٌّ. إسرائيليٌّ. الألم هو حجز الزاوية لديه. كبر وهو يعدِّد أسماء الشهداء في الحروب الصَّليبيَّة الأولى في كتاب ذكرى الشهداء Memorbücher من مكتبة أبيه. تنحلُّ مذابح الألفية الأولى في مذابح الألفية الثانية. أمَّا أحداث الشغب والبوغروم في عهد الإمبراطورية الرُّوسيَّة، فقد أُدرِجَتْ كاستطراد في كُتُب Yizker-Bikher وغيرها من المؤلَّفات التي تتناول ذكريات الحرب العالمية الثانية.

حيوات مُدمَّرة.

أنقاض قرية يهودية مفقودة.

إحياء.

فقدان من جديد.

إحياء من جديد.

تكرار لأسماء شهداء، سقطوا منذُ ألف عام.

شعائر بعد شعائر.

تكريم ذكرى بعد تكريم.

مأساة بعد مأساة.

يهوديٌّ. صِهْيُوْنِيٌّ. إسرائيليٌّ. حياته فاجعة. تراجيديا. قائمة حَلَزُوْنِيَّة لأسماء ضحايا الأيَّام الغابرة حَدَثَت في أماكن بعيدة، تدور بدون ترتيب. بدون زمان. بدون مكان. منطقها الوحيد، عبادة الألم والعذاب. ألم فريد. لا مثيل له. استثنائي.

يهوديٌّ. صِهْيُوْنِيٌّ. إسرائيليٌّ. سيبقى دائماً مختلفاً عن بقية الشعوب. بل مختلفاً حتَّى عن بقية اليهود في العالم. وبخاصَّة أولئك اللَّامبالين بالثُّلاثيَّة التي لا تتجزَّأ أن تكون يهودياً صِهْيُوْنِيَّاً إسرائيلياً.

هم لا يطالبون بقيام إسرائيل، ولا يُندِّدون بها أيضاً. لا يتطلَّعون إلى أيِّ تحرُّر. لا بالنسبة إليهم، ولا بالنسبة إلى الفلسطينيِّيْن. هم الفرحون، لا يعرفون الآلام. لا آلامهم ولا آلام الفلسطينيِّيْن. هم يراقبون الآلام من بعيد. ويأسفون لها دون أن يحرِّكوا إصبعهم الصغير.

هو، على الأقلِّ، يعرف معركته. وقد تعلَّم كيف يتألَّم حتَّى قبل أن يواجِهَ الألم. أن يقاتل باسم ذلك الألم. تاريخه هو ذلك المسمار الذي يَنْخَزُهُ في مؤخِّرته ما إن يجرؤ على التفكير في الجلوس والاستمتاع بالسعادة. كيف يكون شخصاً عادياً مَنْ نَقَشَ الألمَ على جِلْده؟

في البداية، لم يفهم الأمر. لماذا يحرص على أن يظلَّ حزيناً عندما يكون سعيداً؟ لماذا يتجنَّب النجاح؟ لماذا يعيش كما لو أن الإخفاق، لا بل حتَّى الرضى بالذات، يتربَّص به؟ لماذا كلُّ حرب يربحها هي

قنبلة موقوتة؟ تهديد وجودي؟ كلُّ احتفال بولادة إسرائيل هو احتفال مسروق من نهايتها؟ لماذا كلَّما حلَّ عيد الفصح، كان يقول هو ووالداه وأولاده، ولا زالوا يقولون وسيقولون دائماً «العام القادم في القُدْس»، مع أنهم يأكلون ويتناسلون ويتبرَّزون وينامون كلَّ ليلة في القُدْس منذُ سنة 1967؟ لماذا هو مَنفيٌّ في هذه الأرض، وسيبقى مَنفياً كما كان مَنفياً طوال حياته، مع أنه وُلِدَ على هذه الأرض، وكبر على هذه الأرض، وسيموت دون شكٍّ - فيما لو أطلقت هذه المرأة حُرِّيَّته - على هذه الأرض؟

هذا أمر لا يفهمه. ثمَّ تَعقُبُ السذاجةَ اليقظةُ. واليقظة تليها خيبةُ الأمل. وخيبةُ الأمل تليها المهامُّ المضجِرة للسلطة. فإن ما كان يبدو مبهماً يصبح فجأة بديهياً: فبدون هذه الآلام، ما كان له أن يعرف ماذا يعني أن يكون يهودياً صِهيُوْنِيَّاً إسرائيلياً.

حياته. وصول أبوَيْه. كفاحاته. نضالاته. كلُّ الأفعال الدنيئة التي اقترفها - نعم، لقد قام بأعمال دنيئة وهو يعرف ذلك - تُختصَر في ذلك السعي للانعتاق، ولتجديد الآلام. هو لا يتخيَّل إلَّا أن يكون يهودياً صِهيُوْنِيَّاً إسرائيلياً. ولا يستطيع تقسيم ثلاثية الآلام هذه غير القابلة للقسمة. ولماذا يفعل ذلك ما دامت قد أثبتت جدواها بهذا القَدْر؟

إنسان عادي؟ كلَّا! هو ليس إنساناً عادياً، ولا يمكنه إطلاقاً أن يكون عادياً!

الفلسطينيون أناس عاديون. يأخذون الحياة على بساطتها. على بداهتها. يعيشون في ظلِّ أفراحِها، آلامِها، هَبَّاتِها، مِحَنِهَا. الفلسطينيون متجذِّرون، ولا شيء يمكنه أن يفصلهم عن الأرض، ولا

أيّ مخلوق. والأرض تعرفهم، كما يعرفونها. الأرض وفية لهم، وستبقى وفية.

المستوطنون والحجّاج والصَّليبيُّون. يأتون ويذهبون. مثل الفصول. تُبنَى المعابد، وتنهار الممالك، وتفنى السلالات. حتَّى الآلهة؛ والفلَّاحون هنا، يستيقظون كلّ صباح. يُقبِّلون الفجر. يحرثون الأرض. والتُّجَّار هنا، يذهبون للسوق في القُدْس القديمة قبل قدوم الناس. يُنظِّف كلُّ واحد منهم جزء الزقاق أمام دُكَّانه. يستقبلون سكَّان المدينة الذين جاؤوا يشترون خبزهم ومؤونتهم.

لا بدَّ من وجود أحدهم للعناية بالحياة اليومية، بينما يتهاوى المؤمنون السائرون على خُطى المسيح أو يبكون على حائط البُراق. بينما يعيش السُّيَّاح تخيُّلاتهم عن الأرض المقدَّسة والمشرق. لا بدَّ من وجود أحد يلمُّ الزّبالة بعد مرور الملهمين. يسقي الجنائن بعد رحيل المتحمِّسين والملوك والمحاربين.

وهؤلاء الفلسطينيون موجودون هنا. حاضرون ومنتظمون حضور دقَّات قلوبهم وانتظامها. أناس عاديون بإصرار في بلد مُبتلَى بالأساطير الإنجيلية. بالمعجزات. بالخرافات المُحاكَة بين جدران قلاع بعيدة جدًّا. أحلام جِيء بها من الغيتوهات في المُدُن الغربية.

قبل النكبة - فقيام إسرائيل، بالنسبة إليهم، هو كارثة بكلِّ معنى الكلمة - كانوا يواجهون غُزاة مصابين بجنون العَظَمَة، ثَمِلِيْن بالمجد. غُزاة ما أسهل ما يطيح بهم غُزاة آخرون. وسرعان ما يتلاشى جنون العَظَمَة ذاك، ويضمحلُّ أمام حياة الفلَّاحين الوادعة، التي لا تؤثِّر فيها مزاجات الأباطرة التَّعسُّفيَّة. لكنَّ هؤلاء الفلَّاحين لم يُواجِهُوا قطُّ مثل

هذه القوَّة المطلقة. قوَّة الألم. قوَّة نابعة من الألم . ألم معاند قَهْري. سلطته في الاستدعاء. في الاستلهام. في الإلغاء. قدرته على سَحْق كلِّ أشكال المقاومة، تلك التي في الداخل، كما التي في الخارج. براعته في فعل ذلك.

ألمٌ يَطْوِي وينشر الزمان والمكان بسهولة ويُسْر. يتعامل مع طبقات التاريخ، كما لو أنها آلة أكورديون. ألمٌ يُستقَى من بئر، لا قرار لها، ثمَّ يُسبَغ عليه لباس اليقين.

وقد كُنِس هؤلاء الفلسطينيون المغرقون في الاعتيادية. كُنِسوا كما يُنفَض الغبار عن سطح قطعة مقدَّسة.

لم أكن في حياتي إنساناً عادياً. ولن أكون إنساناً عادياً أبداً. أن تكون إنساناً عادياً يعني أن يُحكَم عليه بالإعدام في هذا البلد.

فلنمتْ، إذنْ، لمَ لا؟ ولنكنْ عاديِّيْن معاً. فنحن كذلك أحياناً.

كنتُ جميلة في شبابي. فتاة عادية. كانت الأرض تضحك تحت قَدَمَيَّ، وأنا أقفز في الحقول. كانت الخيول تصهل متحمِّسة، وهي تُشنِّف آذانها، لتلتقط صوتي، وتنتزعه من الريح.

أنا أيضاً كنتُ أُحبُّ الخيول ...

أعرف.

انفصلت ريتا عن أريك. أخذتْ بعض الماء في راحة يدها، وراحت تسكبه بهدوء على شَعْره الأبيض، وهي تُدلِّك له جِلْد رأسه. كرَّرت الحركة. على وجهه. على كتفَيْه. على صدره. على كلِّ عضو فيه.

تعالَ، أريك.

إلى أين؟

إلى حيثُ لا يزال بالإمكان أن تكون عادياً.

أين!

في السوق. تعالَ بسرعة! القرويون قادمون مع خيولهم. كيف تَخُبُّ الخيول العربية، يا أريك؟

كما لو أنها هي السَّيِّد، والقروِيِّيْن خُدَّام لديها. إني لأحسدهم ...

مَنْ؟ القرويُّون أم الخيل؟

الاثنان.

استدرْ نحو اليسار. في زاوية منعزلة من السوق. هل تراه؟

مَنْ؟

فتى يجلس في البعيد. بينما الصِّبيَة الآخرون يتبخترون أمام الصبايا، عيناه لا تريان إلَّا فَرَسه.

ليس هناك فتى.

إنه هنا.

أنا لا أرى شيئاً! لقد أعميتِني أم أنكِ نسيتِ ذلك؟

ياه، يا أريك! هناك طُرُق أخرى للإبصار. تَجَرَّأْ على النظر في داخلكَ.

برزت صورة. كان الفتى، ومن الواضح أنه فلَّاح عربي، يُوَشْوِشُ كلمات حنونة لفَرَسه. الدَّابَّة تميل بأُذنَيْها نحو أنفاسه، وتتنهَّد بعمق. هذا مشهد مألوف لديه. أبوه، صموئيل، هو أيضاً في السوق. أتيا معاً على العربة التي يجرُّها الحصان، للقيام بمشترياتهم اليومية. الذهاب إلى السوق كلّ أسبوع يعني الإثارة والفزع، في آنٍ واحد. كان ذلك في سنوات الثَّلاثينيَّات. في خضمِّ التَّمرُّد العربي. وقد تحوَّلت الثورة ضدَّ الإنكليز، أسياد ذلك الزمان، إلى إضراب عامٍّ. وسرعان ما حلَّ مكان قطَّاع الطُّرُق من أمثال أبو جلدة - الذين يعدُّهم الفلَّاحون أبطالاً فيما يُسارِع الإنكليز إلى شَنْقهم - قطَّاع طُرُق آخرون، رُفعوا إلى رتبة ثوريِّيْن، من أمثال عزّ الدِّيْن القسَّام وأتباعه وغيرهم. القسَّام! كان هذا الاسم يمنعه من النوم عندما كان طفلاً. بل أسوأ، إذ سيلحق به الاسم كلّ حياته ملصقاً على صواريخ مصنوعة يدوياً، تُطلَق من الأحياء المتهالكة في غزَّة والمخيَّمات. مرَّت سبعون عاماً، ولا يزال الاسم يطارده.

فجأة، التفت الفتى نحو أريك. يبدو أن فَرَسَهُ قد همست له بكلمة ما عن الرجل الغريب الذي يراقبه. هل يراه؟ هل يسخران منه، هو وفَرَسه، من عُريه؟ من وساخته؟

اِهْدَأْ، اهْدَأْ، يا أريك. أنا مَنْ ينظران إليها. الفتاة اليهودية ذات الضَفائر الذَّهبيَّة.

ما الذي تحاولين فعله؟ هذه ليست حكايتي. ليست حكايتي!

إنها حكاية أخرى. ألم تسألْني مَنْ أنا؟ لكنها، أيضاً، حكايتكَ. ألَا تودُّ أن تعرف إن كان ثمَّة أريكاً آخر، يتنفَّس تحت هذه الكتلة من اللحم؟

راحت ريتا تفرك بحجر خشن الأملاح والأدران عن جِلْد أريك. مع الغسيل كانت الأوساخ تنحلُّ، ومعها يذوب الحياء. مداعبات ريتا تتكثَّف، وهو يشعر بأمواج من الراحة على كامل جسده.

اسمعْ، أريك. ماذا تسمع؟

إنه يسمع كما لم يسمع بحياته قطُّ. وراء أصوات السوق وضجيجه، هسهسة الصخور السوداء والحمراء والصفراء تحت أشعَّة الشمس. وشوشات شجرات النخل. أصوات المها وهي تلهو على ضفَّة النبع. أبعد قليلاً، في مغارة في عمق الصحراء، سمع صوت ليلي يلتحم مع قطرات الندى، فيشكِّل نوازل. وأبعد أيضاً، هناك صدى وراء التلال. صوت كلام عربي عليه طلاوة، مسبوك كأنه اللؤلؤ. عقد من الكلمات. قصيدة شِعْر.

كانت أنفاسه تتداخل مع مداعبات ريتا. قلبه يخفق وراء عَيْنَيْه، أم هو قلب الفتى العربي الذي يَخفِق؟

لديه مَلَكَة الكلمات.

مَنْ؟

الفتى. إنه يقرأ قصائد شِعْر بالعربية، لكنني لا أفهم ما يقول. أحببْنا بعضنا سَنَتَيْن كاملَتَيْن. في السوق، كان يُحضِر لي فاكهة من أرض أبيه. كان يقول لي إن اسمي هو نفسه بالعربية والعبرية. كنَّا نتقاسم السماء نفسها. نعدُّ الغيمات القطنية، كلٌّ من نافذته. في الليل، كنتُ أتسلَّل إلى قريته. نستلقي على التبن مع فَرَسه. في زاوية مَنسِيَّة، لم يكن ثمَّة وجود لأحد إلَّا نحن الاثنان والفَرَس. ثمَّ اندلعت الحرب. وهربت منَّا طفولتنا. لم يعد يأتي إلى السوق. ولا أنا إلى

قريته. لم يعد هناك فَرَس بيننا. فقط المسافات وآلاف القصص والقصائد.

أين هو؟

هو في داخلي. زهرة لوز بين رِئَتَيَّ. أُشْمُمْ. هل تشمُّهُ، يا أريك؟

أخذ نَفَساً. شمَّ رائحة شهوته. روائح جِلْده المتعفِّن الكريهة. العطر. عبير أنثوي يطبع القُبل على جسده. كم يودُّ أن يستسلم ويترك نفسه تنحلُّ في عطر المرأة هذا. أن يهرب ... يهرب ...

الهرب مستحيل، يا أريك. خلال الحرب، لم أفعل سوى الهرب. عندما كان أبواي يناديان عليَّ، كنتُ أهرب إلى مخزن الحبوب.

ابتسم أريك رغماً عنه. فكَّر بالساعات التي أمضاها في إسطبل أبيه ... هارباً هو أيضاً. كانت الخيول تهتاج، فينهض ويقوم برعايتها، يُدلِّلها بجزرة أو ...

أو بتُفَّاحة.

انسكبت رائحة التُّفَّاح من جِلْد ريتا.

خُذْ، يا أريك. تَنَاوَلْ.

تذوَّق جسد ريتا. كانت تتفجَّر تحت لسانه نكهات غريبة. فاتنة. ناعمة. مُرَّة. نكهات انتصار وهزيمة. حُبّ وكراهية. فرح وحِدَاد. نكهات غضب وانتقام. من العالم بأسره. نكهات قلق. مخاوف إنسان غير محبوب. موشافي. ميليشياوي. جندي. سياسي.

فجأة، انتابتْهُ قُشَعْرِيرَة. أَلَا يزال عارياً؟ لقد نسي الأمر تقريباً. تكوَّر

ملتصقاً بجسد ريتا. جسده مُتيبِّس. وحلقه قد تخدَّش من القَيْءِ المتواصل. وهو عطشان والجوع ينهشه. وعندما يكون المرء جائعاً، يجد كلَّ شيء لذيذاً. جسد هذه المرأة الفيحاء. وثدياها الممتلئان حليباً.

شَعَرَ بطَعْم حليب في فمه. طَعْم فاتر. محرَّم. ممزوج بنكهة البارود اللاَّذعة والغاز المُسيِّل للدموع. كم مرَّة سمع هذه الجملة: العربي يرضع كراهية اليهودي من ثدي أُمِّه؟ تلك الجمل التي لا هدف منها سوى إذكاء العنف في داخله؟ وها هو يرضع!

ماذا يشرب؟ أيشرب الكراهية هو أيضاً؟ أم الحُبُّ؟ الندم؟ الحياة؟ الموت؟ هل تحاول تسميمه أم هي تريد أن تشفيه بحليبها؟ كان يشرب وفي داخله تكبر الرغبة في التهام هذه المخلوقة. هذا الصوت. هذا الجسد الذي يدخل ويخرج فيه. يذوب فيه. ينفصل عنه. إنه هنا وهناك. رجل وامرأة. يهودي وفلسطيني. مُفترِس وفريسة. يُحِبُّ ويكره. ولم يعد يعرف أين يبدأ هو، وأين تنتهي هي. إن كانا وجهَيْن أم وجهاً واحداً. أيّ وجه يحمل هو؟ وأيّ وجه وجهها؟

انتزع نفسه عن ثدي ريتا. وراح يتحسَّس ملامحها بأطراف أصابعه. فوجد عينَيّ فيرا. وفم ليلي. وشَعْر غالي المجعّد ... وفي مكان ما، بين ثديَيْها، قلب غور، ابنه الغالي ملفوف في وردة شجرة اللوز التي زرعها الفتى الشاعر. إنها تنمو بين الشظايا. تنشر عطرها في رئَتَي ريتا. أمَّا الحريق، فهو داخله هو. إنه ليشعر بالحريق! كما يحرق جرح مُضمَّخ بالكحول.

نطَّ من مكانه، وصدره مشتعلاً ناراً.

إنكَ تشعر بالحريق، أليس كذلك؟ فلنجرِ، لنجرِ!

إلى أين؟

إلى أبعد ما يمكن. لنتبع غروب الشمس.

أنا لا أرى الشمس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلنتبع القمر.

أنا لا أرى القمر!

فلنتبع النجوم.

ركض. مرتدياً جسد ريتا. تدفعه خفَّتها. كانت خطواته تهمس، والرمل يرتجف. إنه مادَّة. مادَّة مضادَّة. جسيم ونقيضه. شيء ما بين الموجود وغير الموجود.

هل هذا هو أن تكون امرأة؟ أن تسبح، كريةً في شرايين الرجال؟ أن تبحث عن الروح في قَعْر هذا الجسد الضخم المريض، ثمَّ تحقن فيه هذا العطر الحارق؟ أن تحقد على الرجال وعلى عنفهم دون أن يصل ذلك الشعور إلى حَدِّ الكراهية قطُّ؟ لو أنه في مكانها، لَكَرِهَ نفسه. ثمَّ ها هما، هو وهي. جسد جنين ورحم. فلماذا، إذنْ، تسمح له أن يحتلَّ جسدها هكذا؟ ألَا تخاف أن يتطفَّل عليها أم أنها هي الطّفيليَّة؟ هل هي ميّتة؟ هل هو الانتقام أم الجزع؟

وماذا لو أنني الحُبُّ، يا أريك؟

ركض لساعات وساعات. مستمتِعاً بتحرُّره من جسده. من بدانته. من حطامه. تبدَّد حريق العطر.

تنفَّسْ، يا أريك.

يتنفَّس.

طبعت قبلة على جفنه اليسار. ولَّدت نقطة ضوء. بدأت ضعيفة، لكنها أنارت الظلام بهدوء. ثمَّ قبلة على جفنه اليمين. فانتشرت هالة من الضياء في العَتْمَة.

افتحْ عينَيْكَ، أريك.

إنه يرى. يرى! تلمَّس الجسد الذي يلفُّهُ. كلَّما لمسه، تبدَّل شكله. يتفكَّك. ثمَّ يتكوَّن من جديد بعيداً عن يده. هل هو طيف؟ شبح؟ تطلَّع حواليه مستكشِفاً. النبع. لا يزال عند النبع. ألم يركض لساعات؟ هل كان في حلقة مُفرَغة؟ أليس هناك نهاية لهذه الكتلة السائلة التي تُلاحِقه في كلِّ مكان يذهب إليه؟

صوت حوافر حصان في البعيد. فَرَس الفتى العربي. إنها تطفو فوق السهل. برِّيَّة وحُرَّة. شقَّت الضبابة. جِلْدها حريرٌ لامع. عُرْفها يلامس الهواء. كانت تعدو. جامحة. رشيقة هيفاء. راكبة أمواجاً من القمح. فاتحة لنفسها درباً بين النجوم.

دخلت الفَرَس قرية، تلوح في الأُفُق. هل هذا أُفُق أم حدود؟ أيَّة حدود هذه؟ ليس هناك حواجز، ولا جنود. مجرَّد شعور بها. إنه حَدٌّ. خطٌّ غير مَرئيّ. وماذا لو عبر الخطَّ؟

اعبرْ، يا أريك.

خرج شابٌّ من الأُفُق. عرفه أريك فوراً. إنه فتى السوق. لقد كبر. لحق بالفَرَس. وَشْوَشَ لها بشيء ما في أُذنها وهو يداعب رقبتها. أمَّا

هي، فلم تتغيَّر. بدون عمر. خالدة. فجأة، انحنى وقبَّل حافر الفَرَس الأيمن، ثمَّ الحافر الأيسر(*).

أريك لم يكن يعرف، قبل هذه اللحظة، أن بوسع إنسان ما أن يُحبَّ حيواناً بهذا القَدْر. كان يعتقد أنه الوحيد الذي يُحبُّ الخيول. وكان يعتقد أنه أورَثَ هذا الحُبَّ لابنه غور، فقط. وأن هذا الحُبَّ قد مات بموت غور. لقد تجاوزهم ذلك الحُبُّ! أليس ثمَّة شيء واحد يملكه لم يكن ملك الفلاَّحين من قبل؟

مثل عاشقَيْن، اختفى الرجل وفَرَسه وراء الأُفُق.

أريك، أريك ...

اتركِيْني بحالي.

لقد جاؤوا.

اهتزَّت الأرض. ركضت نحوه أشباح، يرتدون ألوان الجيش الإسرائيلي. أشار إليهم. اقترب الجنود. لم ينظر في عَيْنَيْه أحد. تجاوزوه. وتوجَّهوا نحو القرية. كان الرصاص يتطاير. يصطدم بالصخور. يُشعِل السماء شَرَراً. حاصر الجنودُ القريةَ وهم ينتظرون الأوامر. تأخَّرت الأَوامر. فحلَّ الصمت والمَلَل.

الحرب مُملَّة. إنها سلسلة من الانتظار والمَلَل المقيت.

الحرب ...

أن تنتظر الأمر بالانطلاق، للهجمة التالية.

---

*) مشهد مستوحى من رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصر الله

أن تنتظر الأمر بالانطلاق، للموت التالي.

أن تنتظر الأمر بالانطلاق، لزخَّة المطر التالية من القنابل.

أن تنتظر كلمة نار، لوقف النار.

أريك لديه فكرة عمَّا يجري، فلطالما كان مَلُوْلاً أكثر من الآخرين.

المَلَل، صاحب رهيب عندما يكون عمركَ عشرين عاماً، وفي يدك بندقية. خيَّم الجنود حول القرية منتظرين. بعضهم نام، وفي ذلك علامة ذكاء. بعضهم يلعب الورق. لكنْ، هناك مَنْ يشعرون بذلك الهَرْش في آذانهم. على رقابهم. على طول الذراعَيْن. هَرْش لا يُطاق. المَلَل، الضجر، الرهبة، الهَوَس يختمر في الباطن. ثمَّ يتفجَّر على شكل صفيحات شرسة. هَرْش لا بدَّ من إسكاته وتسكين وتيرته. هَرْش وحشي حتَّى النزف.

فجأة، يشاهد أحدهم راعياً. أخيراً شيئاً ما للتسلية! يغمز رفاقه، ثمَّ تسمع طلقات رشَّاش، وتتبعثر الخراف مذعورة.

الراعي يندب حظَّه وخرافه الهاربة والجنود يقهقهون ساخرين(*).

ثمَّ ... الصمت من جديد. الانتظار. المَلَل. أليس هناك أيُّ علاج لهذا المَلَل؟

ثمَّ تظهر الفَرَس البيضاء. تتقدَّم في الحقل. تُطأطئ بعُرْفها الجميل. تقضم العشب بهدوء. ينفصل جندي عن وحدته. جِلْده يأكله، لدرجة أنه لا يستطيع البقاء دون حركة. لا بدَّ أن يطلق الرصاص. لا بدَّ أن يطلق الرصاص وإلَّا مات بشهوته. ثبَّت منظار بندقيته على الجسد اللاَّمع.

---

*) مشهد مستوحى من رواية خربت خزعة ليزهار سميلنسكي

نعم. مُوتي. مُوتي! لا بدَّ أن تسيل الدماء. لم يعد يتحمَّل المَلَل، ولا تلك الصفيحات التي تُنمِّل فوق جسمه كلِّه.

أطلق النار بأصابع مهتاجة، كَمَنْ يَهْرُشُ مكان قرصة حشرة سوداء.

أطلق النار كما يكشط أحدهم جِلْده، كما يصقله بالرمل، كما يسلخه.

وعندما سَقَطَت الفَرَس، انفجر في ضحكة مجنونة.

جاء الرجل الذي قبَّل حافر الفَرَس مسرعاً. فانتصب جنود آخرون بدورهم. مَنْ منهم سيردي الفلَّاح؟ أكثرهم فلهوية وجد لنفسه مرتكزاً. انبطح على بطنه. ثبَّت سلاحه جيِّداً بين ساعدَيْه.

أزَّت الرصاصة.

انهار الرجل في البعيد. وانهارت معه قصائده.

دوَّى صراخ مخيف من القرية. واخترقت السماء طلقات رصاص. راح الجنود وقد شجَّعتْهم جرأة رفاقهم، يمُشِّطون الحقول. يخرقون شبابيك البيوت بالرصاص. يدوسون الفاكهة والخضار. يُردون القرويِّيْنْ الذين يهرعون لإنقاذ الرعاة. بعض الجنود تكالبوا على الفِناء، يعدُّون رؤوس الماعز الغارقة في دمها.

المَلَل هو أكثر شعور قاتل. كم جثَّة تحتاج، يا أريك، لكي تُخفِّف من ضجر الرجال المحمومين؟

اسكتي!

الأمر سيأتي بطبيعة الحال. والجنود سيُفرِغون القرية كما نُفرِغ غرفة المؤنة للتعزيل.

توقَّفي.

على مهل. بانتظام.

كلَّا!

سيتمُّ جمع الرجال. المستسلمون مربوطين بالسلاسل والمتمرِّدون جثثاً هامدة.

أغلقِي فمكِ!

أمَّا النساءُ والأطفال والشُّبَّان، فيُعبَّؤون في الشاحنات.

هل تريدين قَتْلي؟

كلَّا، يا أريك. لقد قَتلتُ مرَّةً عن كلِّ المرَّات.

اتركِيني بحالي، أيَّتها الساحرة!

لم تعد تريد أن تعرف مَنْ أنا؟ لكن حكايتي لا تنتهي هنا.

فأين تنتهي، إذنْ؟

ها هو في إسطبل طفولته. وكأنه يرى خيول الموشاف لأوَّل مرَّة في حياته. مربوطة في حظائرها، أجسادها أنهكها التعب. أسنانها مُستهلَكَة. رؤوسها مطأطئة. نظراتها تصيح فيه: أنتَ لستَ حُرَّاً أكثر منَّا، لستَ سيِّد نفسكَ أكثر منَّا، أيُّها المغفل. ستموت في هذا الجسد البشع السخيف. جِلْدكَ متآكل من الداخل، وملامحك مُجوَّفة.

كلَّا! كلَّا! كلَّا! الحكاية لا تنتهي هنا!

كلَّا ... بل هنا يبدأ كلُّ شيء.

تتطاير شعلة من نار. اللهب يشبُّ في التبن، ويلتهم الجدران.

مَنْ ألقى الشعلة؟ مَنْ؟

يُلقي أريك بنفسه في الإسطبل. ابنه غور لن يغفر له أبداً تَرْكَهُ الخيول تموت. فَتَحَ الحظائر، وأطلقَ البهائم.

اخرجي! اخرجي! اهربي!

بقيت الخيول متبلِّدة بينما النار ترسم دائرة جهنَّميَّة حولها. يضربها أريك بالسوط.

اهربي، أيَّتها الحيوانات الغبية!

أريك ... أريك ...

كلَّا!

فات الأوان. لقد ماتت الخيول من زمان.

لماذا؟ لأجل الانتقام؟

لأجل الحُرِّيَّة.

أنا أيضاً كان عمري عشرين عاماً حين أرادوا أن يصنعوا منِّي قاتلة. فقتلتُ الموت عوضاً عن ذلك. مرَّة، مرَّتَيْن، وألف مرَّة. التهمت النارُ الخيولَ في الإسطبل. ثمَّ التهمتْني مع الخيول. في 15 أيَّار 1948، يوم هُجِر شاعري، وُلد البلد، ويوم وُلد البلد، قتلتُ نفسي.

ومنذُئذ وأنا أموت وأُولَد. أنا المرأة - البلبل. المرأة - الصوت.

المرأة - الفَرَس. أجوب التلال والوديان. الصحارى والسهول. البحيرات والأنهار. أضرب الأرض، وأدوسها بحوافري. فارستي الوحيدة، غضب النساء. أحلامهنَّ. رغباتهنَّ. كوابيسهنَّ. قتلتُ الأحصنة، ثمَّ انتحرت.

خائنة!

ريتا. أنا ريتا. الشاعر هكذا أسماني. وُلدْتُ يوم موتي. أنا طفل وُلِدَ ميّتاً، في بلد وُلِدَ ميّتاً. أرتدي حيوات الآخرين. أجول في الأرض، وأطير في الهواء. أقطف الأرواح. أحملها فوق ظهري وفوق أجنحتي. وفي كلِّ مرَّة تحترق أجنحتي، أقتل نفسي، ومن دمي أُولَد من جديد. على وجهي، تزداد التجاعيد. واحدة لكلِّ حياة. ذات يوم، لن أكون سوى خطوط محفورة في وجه الموت. حكايات مَمحوَّة. أقدار محفورة في خدود هذه الأرض. في ذلك اليوم، سأصبح أخيراً لا أحد. هل عرفتَني الآن؟

- مَنْ أنتِ؟

هي.

تقف مجنَّدة بعيداً عن رفاقها. هم ينشرون الرعب في القرية، ويُرهبون سكَّانها. أمَّا هي، فقد تأخَّرت في الانضمام للآخرين. كانت تلتفت، وتتأمَّل الدمار.

وهي.

طفلة في المستوطنة تبحث عن بالونها. البالون يطير في أرض ملعب فارغ. تحت العشب الاصطناعي، قبر جماعي.

وهي.

مراهقة في اللباس العسكري تتقدَّم نحو برج المراقبة في الجدار للبدء بنوبة الحراسة. مهمَّة اليوم: أن تدفع النساء والأطفال في ظهورهم.

أصوات.

من أين تأتي هذه الأصوات؟

من النبع. إنها صدى كلِّ البدايات الجديدة الفاشلة. كلُّ الأصوات في داخلي. في كلِّ مرَّة أموت فيها، أعود إلى النبع.

أيُّ نبع؟

النبع الذي يؤدِّي إلى نهاية أخرى.

هل أنتِ نهايتي؟

أنا بداية النهاية. ألم تقلْ لكِ فيرا هذا؟

هل أنتِ أُمِّي؟

أنا أُمُّكِ، ومَنْ لم يكن بوسع أُمِّكِ أن تكونها قطُّ. في إحدى حيواتي، كان العرب ينادونني غزالة، واليهود غريبة الأطوار. كنتُ أداوي الضحايا والقَتَلَة. اليهود والعرب. مرَّة، خيَّطتُ ذقن شابٍّ وقع عن حماره. فضَّلتْ أُمُّه أن تقطع عدَّة كيلومترات، لتأتيَ إليَّ بدل أن تذهب إلى مستوصف الموشاف. كانت تُدعى فيرا، وابنها كان يُدعى أرييل.

هذه أنتِ؟ دائماً أنتِ! منذُ متى وأنتِ تلاحقينني؟ أعيدي إليَّ أُمِّي! أعيدي إليَّ غالي! أعيدي إليَّ ليلي! أعيدي إليَّ حياتي، يا سارقة الحيوات؟

أنا هي، هي وهي ...

غولدا، المرأة الحديدية. حنَّة، المرأة النور. ريتا، القصيدة. الصوت. أنا محاربة. فيلسوفة. شافية. أنا مَنْ تقرأ لكَ الكُتُب على سرير موتك. أنا كلُّ الحيوات الجميلة والشِّريرة التي يلدها هذا البلد. أنا طير كاسر وبلبل صدَّاح. فَرَس أبيض وفَرَس أسود. وبقَدْر ما عايشتُ الموت، أخضعتُ نفوس الرجال.

لا تقلْ شيئاً، يا أريك. أنا أسمع لغة العيون السِّرِّيَّة. أتفرَّس في أسرار الوجوه والعذابات في نظراتكم. أنتِ وفيرا وليلي وغالي. كلُّ تجعيدة. كلُّ الابتسامات المصطنعة. الجفون التي تتسلَّى في إخفاء أمور غير ذي بال. الشفاه المتغضِّنة من الجراح. التنهيدة التي تقمع الغضب. لا تحاول أن تُخفي رائحة العفن، يا أريك. فأنا ألتقط رائحة القلوب. ألُفُّ نفسي مثل دودة الحرير في الأمواج التي يغصُّ بها الكون. وأكشف الإنسان اللئيم الذي يتخفَّى بين الأبرياء.

خلال حيواتي وموتي المتكرِّر، تركتُ نفسي يلتهمها ألف ثعبان. يقرضونها، يعلكونها، يمتصُّونها في أحشائهم. شددتُ جسدي على روحي. شربتُ نطاف الغربان. أرضعتُ قَتَلَة الأطفال. جعلتُ مغتصبي النساء يَعوون نشوةً. ومن جسدي، أنا المرأة - المُفترِسة، سبكتُ شَفْرَة حديدية، لأسلخ الوحوش التي تعتقد أنها بشر.

أنا لستُ وحشاً. أنا بشر. انتهى العذاب. انتهى الموت! ما فائدة الحرب إن كنَّا لا نستمتع بالنصر؟ ما الغريب في أن يريد الانسان دائماً أكثر؟ أن يظلَّ دائماً جائعاً؟ لماذا نكتفي بلقمة، إن كان بوسعنا إفراغ الصحن؟ لماذا نكتفي بالبطن المتخم، إن كان بمقدورنا التهام

كلِّ شيء؟ لماذا نشدُّ الحزام، إن كان بمقدورنا أن نتمدَّد مثل الماء على سطح أملس؟ طوال حياتي، كان يطلب منِّي أن أُعاني وأن أتحكَّم بشراهتي. لماذا أحرم نفسي من كلِّ تلك المتع؟

أتريد الاستمتاع، أريك؟

فجأة، سمع صوت جسد يَغطِس في الماء. تلك المياه التي ظنَّ أنه تركها وراءه في البعيد. تلك المياه التي تتبعه وتعضعض كواحله. تلك المياه المليئة بالمجسَّات الماصَّة التي لا تريد سوى أن تخنقه. تلك المياه التي تمحوه ما إن يحاول الخلاص. لقد تعب. تعب من المقاومة ضدَّ التيَّار. الماء ساخن. ساخن بشكل لا يُقاوَم. وكم بودِّه أن يذوب في حرارته.

اترك المدَّ يأخذكَ، يا أريك. أن يأخذ كلَّ ما هو عالق بجِلْدكَ، كلَّ ما تتقيَّأه، كلَّ ما بلعتَهُ. هذه القشور السَّامَّة التي تنحت جسمكَ. وماذا لو أني قشَّرتُ كلَّ الطبقات عن جسدكَ؟ عن ذاكرتكَ؟ ماذا يتبقَّى منكَ، يا أريك؟

وضعتْ يدها بين فخذَيْه، وباعدتْ بينهما. قَاوَمَ.

غسلتْ له فخذَيْه من الداخل. ودَلَّكَتِ الجِلْد الفائض.

وماذا لو حرَّرتُكَ من متعكَ؟ ماذا يتبقَّى منكَ، يا أريك؟

كانت تداعبه وتغسل. تداعبه وتغسل. ثمَّ تداعبه. الشهوة تزداد. تشنَّجت أصابع قَدَمَيْه. تصلَّبت العضلات المسحوقة تحت اللحم الثقيل. استيقظت الحَلَمَتَان الهاجعتان.

ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟ توقَّفي!

أمنحكَ المتعة التي تستحقُّها.

أحاطت بما بين فخذَيْه براحتَيْها. ثمَّ تلاشى الوجود إلَّا من تلك الحركة جيئة وذهاباً. ذلك الضغط الذي يشدُّ ويرخي. يضغط ويشدُّ ويرخي. يضغط ويشدُّ ويرخي. تسارع إيقاع المداعبات. وبات الفرك حارقاً.

فجأة، انفجرت الحرارة. العضو مشدود. الشرايين محقونة بالدم. والجسد كلّه غارق في حرارة الحليب الكراميل الساخن. حليب ضبابي.

حاول أريك أن يخلِّص نفسه. كانت شَفَتَان قطنيَّتان تقبضان على عضوه. تغطِّيانه باللُّعاب. تسلبانه بقية السيطرة المتبقِّية لديه ساحبتَيْن إيَّاه إلى حيثُ تجري الخيالات الجنسية الجامحة. الشهوات. الاندفاعات إلى حيثُ تغلي غرائزه. إغراء أن يمرِّر البلدوزر فوق كلِّ الذين يكرهونه. مَنْ يحاكمونه. مَنْ يعيقون طريقه حتَّى أصدقاءه! هناك حيثُ تُطبخ المرارة والأحقاد على نار هادئة. هناك إلى حيثُ تنعزل البهيمة، لكي تستخرج نخاع العظام من فريستها. ذلك المكان الذي كان يعتقد جازماً أنه مستور تحت طبقات الدهن. هذه المرأة تلويه بشَفَتَيْها. تعصره دون رحمة، لتستخرج ماءه. تلوي وتعصر. قطرة بعد قطرة.

تحوَّل لون الليل إلى النِّيليِّ. والنِّيليُّ إلى البنفسجي. والبنفسجي إلى الأحمر. والأحمر إلى البرتقالي. والبرتقالي إلى الأصفر. والأصفر إلى الأبيض. أبيض وخَّاز. أبيض عديم الرحمة. أبيض على أبيض على أبيض!

سوف يصل للنشوة. وستبتلع كلَّ قدرته. ستأخذ كلَّ شيء. ستسلبه قوَّته. ستسرق منه كلَّ شيء كلَّ ما هو عليه كلَّ ما بناه!

فيرا! أين أنتِ؟ أنقذيني، فيرا!

الرعب يعانق المتعة. رعب في مواجهة الأُمنيَّة السِّرِّيَّة التي تسكنه منذُ طفولته. الرغبة في التَّحرُّر من الوحش. أن ينزع أحدهم أحشاءه أخيراً، ويخلِّصه من نفسه. كلَّا، ليس بعد. ليس الآن. فهو لا شيء بدون الوحش في داخله. لا شيء!

كنْ لا شيء، إذنْ، أريك. هل في ذلك ما يزعجكَ؟ كنْ لا شيء، وابدأ من جديد.

غالي! غالي! إنها تلتهمُني!

كنْ لا شيء، أريك. ولن تجوع بعدها أبداً.

ليلي! خذيني من هنا. أتوسَّل إليكِ. ليلي، حبيبتي!

تعالَ، إذنْ، يا أريك. تعالَ!

ليلي! ليلي!

تعالَ!

ليلي!

مزَّق صراخُه البياضَ. كانت أشباح تتمايل في النور، بعيدة المنال. إنهم هنا! أوري. جلعاد. إنبال. أحفاده. لقد كبروا! وجوههم حزينة. إنهنَّ هنا أيضاً. فيرا وليلي وغالي. وجوههنَّ شبه شفَّافة.

عموده الفِقْريُّ يهتزُّ. عظامه تتشقَّق. إنه يشعر بها. بشرايينه تتفحَّم. بالشحنة الكهربائية للتَّشنُّج عَبْرَ جسده المباح. إنه يسمعها. خفقات قلبه، تتداعى الواحدة تلو الأخرى، إلى أن تصبح صوتاً واحداً، صوتاً حادَّاً يصمُّ الآذان، لا يتوقَّف. نوتة موسيقية، لا نهاية لها.

وهو يصرخ.

أعلى.

وأعلى.

أعلى أكثر!

كانت نشوته من الشراسة، بحيث انطفأ كلُّ شيء.

أريك

قلْ لي الحقيقة، دكتور. كم بقي له من الوقت؟

زمَّ الطبيب شَفَتَيْه، وطلب من جلعاد وإنبال الجلوس. جلسا مقابله، على تلك المقاعد من الجِلْد الصِّناعيِّ التي كم وكم تلقّوا عليها من الأخبار السَّارَّة والسَّيِّئة حول وضع أريك الصِّحِّيِّ.

إنها مسألة ساعات ...

شحب وجه جلعاد. أمسكت إنبال، محبطة، بيد زوجها لتشدَّ من أزره، بقَدْر ما تودُّ شَدَّ أزرَها به. نظر جلعاد إلى التقويم الإلكتروني في زاوية المكتب. إنه يوم 11 كانون الأوَّل 2014. ثماني سنوات، يوم بيوم تقريباً منذُ دخولكَ الغيبوبة، يا أبا aba. ظلَّ جامداً، مبهوراً بالتاريخ. الشيء الوحيد الدَّالُّ على صدمته، كانت أصابعه وهي تضغط على أصابع زوجته. الأرقام الباردة في الساعة تدقُّ الوقت بقوَّة، دون صوت التيك تاك المعتاد.

ها قد بدأ العَدُّ التَّنازليُّ. بل بدأ منذُ زمان، لكن جلعاد كان يرفض تصديق ذلك. فمنذُ بضعة أشهر وأبوه يعاني من عدوى مستفحِلَة في الجهاز البولي. وهي واحدة من الآثار الجانبية للاستخدام المتواصل للقسطرة لتنظيف المثانة.

قال لهم الطبيب شارحاً:

هذا أمر شائع عند مَنْ هم في مثل سنِّه. واستهلاك الجسد جزء من التسلسل الطَّبيعيِّ للأمور، حتَّى لمَنْ هم في غيبوبة.

أمر غريب. فكرة أن أريك لا يزال يتقدَّم في العمر طمأنت جلعاد. هذا دليل آخر على أن أباه حَيٌّ، أنه حاضر، ينتمي للعالم نفسه الذي هو فيه. لكن العدوى تفاقمت، بسبب إخفاق كلوي. وراحت أعضاؤه تستسلم الواحد تلو الآخر. والموت يتسلَّل على مهل قاضماً جسده من الداخل.

أخيراً وبعد صمت طويل، همس جلعاد لزوجته:

لا بدَّ من إعلام العائلة.

هزَّت إنبال برأسها موافقة. أخرجت تلفونها الجوَّال، ووشوشت بضع كلمات، لبعض الأقرباء، ثمَّ لبعض الأصدقاء. ثمَّ اتِّصال أخير بالأولاد. وقبل أن تغادر مكتب الطبيب، قبَّلت جبين زوجها.

لا تتأخَّري ...

سأعود مع الأولاد في أسرع وقت.

ثمَّ اختفت.

وسأل جلعاد:

هل سيتعذَّب، دكتور؟ هل يتعذَّب؟

الموت ليس مؤلماً بالضرورة. لقد تطوَّر علم المسكِّنات كثيراً. وفي

بعض الحالات، مثلما هو مع والدكَ، بعد هذا الانتظار الطويل جدّاً، الموت أصبح ... خلاصاً وراحة، انعتاقاً، إن أحببتَ.

عاد جلعاد إلى غرفة أبيه. إنها هنا. دائماً. جالسة عند قَدَمَيْه، وفي يدها كتاب. الممرِّضة البلبل. من بين جميع الموظَّفين، هي أكثر مَنْ يعرف أريك معرفة حميمية. هي تحمِّمه مرَّة كلّ أسبوع. وهي مَنْ تقصُّ له شَعْره وأظافره. ورغم وجود طبيب علاج فيزيائي يزور أباه بانتظام، لكن البلبل غالباً ما تُدلِّك له ذراعَيْه ورِجْلَيْه، وهي تهمس له بكلام، لم يفهم جلعاد معناه الجلي تماماً. لو أن أُمَّه ليلي لا تزال حَيَّة، لأكلتْها الغَيْرة.

سبق له أن فاجأ الممرِّضة وهي في خضمِّ حوار مع أبيه، تجيب عن أسئلة، هي وحدها تسمعها من بين الجميع. سألها مرَّة كيف بوسعها تخمين ما يجول في رأس رجل راقد في غيبوبة. فقالت بكلِّ بساطة وهي تداعب خَدَّ أريك:

إنه يكلِّمني عبر جسده ووجهه وحاجبَيْه.

هل يعرف مَنْ أنتِ؟

يعرف فيَّ نساء أخريات. نساء عرفهنَّ. ويعرف القصص التي أرويها له.

فقال جلعاد في نفسه وهو يتأمَّل المكتبة التي برعمت حول سرير أبيه، لا بدَّ أنها روت له الكثير من القصص. في هذا اليوم الذي ربَّما هو - في الواقع - آخر يوم في حياته، ها هو شارون قد عاد طفلاً، يهدهده صوت هذه المرأة التي تقرأ له دون توقُّف منذُ سنوات.

أحياناً، تقرأ له قصائد شِعْر. أحياناً آخر روايات بالعبرية، بالرُّوسيَّة، بالهنغارية، بالفرنسية، بالألمانية وحتَّى بالعربية. مُدهِشة هي هذه المرأة التي استطاعت، على مدى ثماني سنوات، الحفاظ على سرِّها.

رؤية البلبل وهي تقرأ لأبيه سيكون من المشاهد التي سيفتقدها بعد ... هناك أشياء روتينية صغيرة تنشأ حتَّى في أشدِّ المواقف مأساوية. منذُ ثماني سنوات والإيقاع المنتظم لشاشة جهاز النبض هو مقياس الزمن لكلِّ مَنْ يحوم حول أريك من رجال ونساء. به يعدُّون الثواني والدقائق والأيَّام. فكيف، إذنْ، سيحسب جلعاد الزمن بعد موت أبيه، إذا كان منذُ دخوله الغيبوبة يعدُّ الأسابيع والأشهر والسنوات من خلال أنفاسه؟

رفعت الممرِّضة كما لو أنها قرأت أفكاره.

خُذْ.

وأعطتْهُ الكتاب مفتوحاً على الصفحة التي كانت تقرؤها.

خالد الثائر، يقبِّل حافر فَرَسه حمامة اليمين، ثمَّ حافرها اليسار. اختفيا رويداً رويداً وراء الأُفُق. عاريَيْن. حُرَّيْن. معاً، كانا يشكِّلان واحداً. حتَّى لو قرأتَ له هذا المشهد ألف مرَّة، فسيسمعه أريك ألف مرَّة وأكثر ...

تردَّد جلعاد.

سيسرُّه جدَّاً أن يسمعَهُ بصوتكَ.

تناول جلعاد الرواية. عنوانها زمن الخيول البيضاء. الكاتب، إبراهيم نصر الله. اللغة، العربية.

كان الرفض فورياً.

كلّا! لن تكون العربية آخر لغة يسمعها.

اللغة العربية في داخله، كما هي في داخلكَ.

مَنْ أنتِ حتّى تقولي لي ماذا في داخلي؟!

فابتسمَتْ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يارا الغضبان: روائيَّة فلسطينيَّة، مُقيمة في كندا. نشأت بين دبي، وبيروت، ودمشق، وصنعاء. وصلت إلى مونتريال في سن الثالثة عشر مع أسرتها في عام 1989. ألّفت يارا ثلاث روايات بالفرنسية: "في ظل الزيتونة (2011)"، "عطر نور (2015)"، وهذه الرواية "أنا أريبل شارون (2018)"، وهي أولى رواياتها التي تترجم إلى العربية. وكانت قد فازت بجائزة في مهرجان بلو متروبوليس (2019). كما وتُرجمت إلى الإنجليزية (2020). يارا حاصلة على جائزة فيكتور مارتين لينش ستونتون لإنجازاتها في عالم الأدب الكندي. وتُركّز رواياتها بالمجمل على حياة الفلسطينيِّين، وخاصة آمال وأحلام المرأة الفلسطينيَّة. تشغل الكاتبة منصب رئيسة مؤسسة (Espace de la Diversité)، وهي مُنظمة تسعى إلى مكافحة العنصرية من خلال الكتب والأدب.

المتوسط

telegram @soramnqraa

الذكاء العظيم ليارا الغضبان في هذه الرواية، يؤكد لنا مجدَّداً أنَّ الأدب يمكن أن يَضحك ويَبكي ويَكره ويَفهم أيضاً.

بول كوتشاك - مجلة رسائل كيبك

قلمٌ يجمعُ بين المشاعرِ والتاريخ والمهارة. كتابٌ يُقرأ دون تأخير.

كامييه ل. - جورنال ألترناتيف

ظلَّ فاقداً للوعي لثماني سنواتٍ قبل وفاته عام 2014، وبينما كانَ غارقاً في غيبوبتِه الطويلةِ تلك، كانت الباحثةُ الأنثروبولوجيَّة والروائيَّة، فلسطينيَّةُ المولد، يارا الغضبان، تتساءل: ما الذي يحدثُ في رأس أرييل شارون؟ مانحةً لخيالها، أجسادَ وأصوات أربعِ نساءٍ يضعنَ هذه الشخصيةَ الإسرائيليَّة المُعقَّدَة، في مواجهةٍ صريحةٍ وقاسيَّةٍ مع أهوالها وإنسانيتها في أضعف اللَّحظات. بين هدوءٍ ظاهريٍّ للمُستشفى، وما يقابلهُ في مكانٍ ما من التاريخ، من صخبِ حربٍ لا تتوقَّف انفجاراتُها عن الحدوث، تضعُ الكاتبةُ، بدورِها، القارئَ في عينِ العاصفة، وهو يقفُ على حقيقة أنَّ وراء كلِّ إنسانٍ، سواءَ كان بطلاً أو جلَّاداً، نسمعُ أصوات الآخرين يتردَّدُ صداها في حقائبهم التي تتزاحمُ في ذاكرتنا.

روايةٌ تُملي شروطَها السرديَّة على الجميع، بمن فيهم الوحشَ النائم في حالةِ نصفِ موت، وليعلو هنا، صوتُ امرأةٍ فلسطينيَّةٍ تمتلكُ قوَّة الخيال ومهارة الكتابة.

الناشر

مكتبة

المتوسط

ISBN 978-88-32201-87-1

9 788832 201871